المركز العلمي العراقي ــ بغداد

رحلة من اسطنبول الى البصرة
سنة 1781

الرحالة الايطالي سيستيني

ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها

الأب د. بطرس حدّاد



23

كان سيستيني واسع الاطلاع فهو يذكر المؤرخين والجغرافيين القدماء من امثال: زينينون وبلينمي وسترايون وبطليموس؛ وينوه باصحاب الرحلات الى الشرق الذين سبقوه من امثال: ديللافاليه ونيبور وتافرنييه ودانفيل واوتر فيقارن بين ما قرأه في كتبهم وما رآه بعينيه.

اهتم بذكر اسماء المدن والقرى. وذكر عدداً كبيراً من النباتات والحيوانات، ونوه بالاماكن التي يجب دفع الرسوم فيها ومقدارها؛ وذكر بعض الاحداث التاريخية؛ واهتم بالمسكوكات فهي ميدان اختصاصه.

الرحلة مقسمة الى فصول، ولكل فصل عنوانه وقد حافظت على تلك العناوين، لكني اضفت عناوين ثانوية لتسهيل القراءة؛ ثم انزلت التعليقات في الهوامش التي رأيت فيها فائدة للقارئ الكريم.

ليس في الكتاب صور ما عدا خريطة واحدة في مطلعه. لكني فضلت ادخال بعض الصور لتشوق القارئ على مطالعة الكتاب، وهي صور مواقع لم تتغير منذ عهد الرحلة مثل الجسر العباسي في زاخو او المنارة الحدباء في الموصل وغير ذلك.



المركز العلمي العراقي
بغداد
البريد الالكتروني
sci.studies@yahoo.com

توزيع
دار ومكتبة البصائر
للطباعة والنشر والتوزيع
Email: daralbasaer@yahoo.com
Email: iraqsms@hotmail.com

الرحالة الايطالي سيستيني

رحلة من اسطنبول إلى البصرة سنة 1781

ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها

الأب د. بطرس حدّاد

المركز العلمي العراقي - بغداد

توزيع دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب رحلة من اسطنبول إلى البصرة سنة 1781
المؤلف الرحالة الايطالي سيستيني
ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها
الأب د . بطرس حدّاد
دار النشر دار ومكتبة البصائر - بيروت - لبنان
الطبعة الأولى
تاريخ الطبع 2014
الإخراج الفني ليث عباس علي

البريد الالكتروني
Sci.studies@yahoo.com

المركز العلمي العراقي

توزيع

دار العلم و الإيمان للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية محافظة كفر الشيخ مدينة دسوق
البريد الالكتروني
elelm_aleman@hotmail.com / elelm_aleman@yahoo.com
ت/0020472550341-0020472562023
ف / 0020472560281

مقدمة المعرب

البداية

كنت قبل سنين بعيدة قد قرأت في مجلة الاقلام للاستاذ كوركيس عواد رحمه الله عن الرحلات ورد فيها ما يلي:

«كان سيستيني رحالة ايطاليا من اهل القرن الثامن عشر، زار العراق، والف رحلة باللغة الايطالية بعنوان» «رحلة من القسطنطينية الى البصرة عام 1781 م» نقلت الى الفرنسية وطبعت في باريس سنة 1797 م.

ثم اكمل: «عني العلامة الدكتور روفائيل بيداويد مطران العمادية بترجمة هذه الرحلة الى اللغة العربية. وقد رجع في تلك الترجمة الى الاصل الايطالي والى الترجمة الفرنسية. ولكن قبل ان يتهيأ له طبع هذه الترجمة العربية، جرى ما جرى من احراق مكتبته ونهبها اثناء الاحداث التي انتابت العمادية قبل سنوات قلائل[نحو سنة 1961] وكانت الترجمة العربية لهذه الرحلة في جملة ما ذهب في هذه الحادثة المؤسفة.

وانهى كلامه: ولكن هذا الحبر الهمام لم يقعده ضياع الترجمة العربية بل اقبل من جديد على ترجمتها ترجمة ثانية... »[1].

مضت الاعوام ولم نتمتع برؤية هذا الكتاب. وفي سنة 1989 قدم المطران المذكور من مركز عمله في بيروت وانتخب بطريركاً للكنيسة الكلدانية واختارني لاكون رئيس ديوانه فكنت ألتقي به يومياً وقد فاتحته اكثر من مرة عن ترجمته لرحلة سيستيني فاكد لي انه كان قد اتم الترجمة وسافر في الصيف الى خارج العراق وفي غيابه نشبت معارك في شمال عراقنا الحبيب ودخل الغرباء الى بيت سكناه فاحرقوا مكتبته الثمينة واوراقه الخاصة، وكانت ترجمة هذه الرحلة من بين

---

[1] ــ كوركيس عواد : المعرب من كتب الرحلات الاجنبية الى العراق . الاقلام 1 (1964) العدد الاول ، ص 54 ، 74 .

ضحايا تلك المعارك المؤسفة، ولم يقبل على ترجمتها من جديد اذ نقلت خدماته الى بيروت.

واذ كنت قد ترجمت ونشرت نصوص بعض الرحلات فقد تحمست لترجمة هذه الرحلة تخليداً لذكرى استاذي ورئيسي البطريرك بيداويد طيب الله ثراه. وحاولت الحصول على نص الرحلة الاصلي اي الايطالي فلم تتحقق رغبتي، فاعتمدت على الترجمة الفرنسية التي وجدت نسخة منها في مكتبة المتحف العراقي وهي من جملة مكتبة المرحوم الاستاذ يعقوب سركيس[1]، صاحب اكبر مجموعة من كتب الرحلات الى العراق. وبهذه المناسبة ابدي شكري للاستاذ قيس حسين رشيد رئيس الهيئة وكالة ومدير التحريات في هيئة الآثار وكذلك الموظفات في المكتبة المذكورة للتعاون البناء وتسهيل المراجعة.

صاحب الرحلة :

انه دومينيكو سيستيني Domenico Sestini الذي ابصر النور في مدينة فلورنس Firenz مدينة الفن والجمال سنة 1750، وكان من مثقفي عصره فهو اكاديمي كما ورد على الصفحة الاولى من كتاب رحلته، واهتم بالاثار خاصة آثار الاتووسكيين وهم قوم عاشوا في منطقة Vulci بايطاليا وتأثروا بالفن الاغريقي في البناء والنقش. ثم اهتم صاحبنا وتخصص بالمسكوكات، ومن اجل ذلك بدأ برحلات عديدة في داخل بلاده اولاً ثم خارجها: فزار اولاً جزيرة صقلية ثم توجه الى بلدان اسيا الصغرى ودرس اللغة التركية فتعلمها، فذهب الى اسطنبول وانتقل الى سوريا ودخل بلاد ما بين النهرين من شماله وتقدم الى الموصل فبغداد حتّى وصل الى البصرة. وبعد ان أقام فيها مدة استعد للرجوع الى بغداد ليعود الى بلاده فاستقل واسطة نهرية فصعد الى الحلة ومنها ذهب براً الى بغداد ثم كركوك فالموصل، وصعد الى ماردين وديار بكر حتّى وصل اخيراً الى اسطنبول.

وبعد ان عاد الى مسقط رأسه انكب على كتابة ذكرياته فخرج على الناس بكتاب وصف رحلته عنوانه الكامل:«رحلة من القسطنطينية الى البصرة سنة

---

[1] ــ توفي سنة 1959 .

1781 في دجلة والفرات، والعودة الى القسطنطينية سنة 1782 في طريق البادية ثم الاسكندرية للاكاديمي سيستيني»

وقد طبع الكتاب سنة 1786، ثم ترجم الى الفرنسية وهذا عنوانه:

par l-e Tigre ‹ en 1781‹" Voyage de Constantinople a Bssora etretour a Constantinople en 1782 par Le desert et ‹et L'Euphrate ‹Alexandrie.. par L'Academicien SESTINi " Traduit de L'Ltalien Paris – 1797.

واهتم سيستيني بالكتب والمكتبات فأصبح اميناً على مكتبة كاتانيا في صقلية، وبعد سنوات تسنم ادارة احدى خزائن الكتب في فلورنس، وفي سنة 1810 زار باريس، ودعي الى المجر(هنغاريا) لابداء رأيه في احدى مجموعات المسكوكات الفنية، ثم عين استاذاً في جامعة بيزا العريقة. وانتقل الى رحمة الله سنة 1832.

مؤلفاته

اهتم سيستيني بالبحث والتأليف وقد وصلتنا اعماله، نذكر منها:

1ـ وصف متحف الامير بسكاري، 1776.

2ـ رسائل: وقد ترجمت الى الفرنسية وطبعت في ثلاثة اجزاء 1789.

3ـ رحلة من القسطنطينية الى البصرة.

4 ـ رحلة من القسطنطينية الى بوخارست سنة 1779.

5ـ الكتب الاخيرة اختصت بوصف المسكوكات الموجودة في المجموعات الخاصة والعامة.

الرحلة:

كان سيستيني واسع الاطلاع فهو يذكر المؤرخين والجغرافيين القدماء من امثال: زينينون وبلينمي وسترايون وبطليموس؛ وينوه باصحاب الرحلات الى الشرق الذين سبقوه من امثال: ديللافاليه ونيبور وتافرنييه ودانفيل واوتر فيقارن بين ما قرأه في كتبهم وما رآه بعينيه.

اهتم بذكر اسماء المدن والقرى. وذكر عدداً كبيراً من النباتات والحيوانات، ونوه بالاماكن التي يجب دفع الرسوم فيها ومقدارها؛ وذكر بعض الاحداث التاريخية؛ واهتم بالمسكوكات فهي ميدان اختصاصه.

الرحلة مقسمة الى فصول، ولكل فصل عنوانه وقد حافظت على تلك العناوين، لكني اضفت عناوين ثانوية لتسهيل القراءة؛ ثم انزلت التعليقات في الهوامش التي رأيت فيها فائدة للقارئ الكريم.

ليس في الكتاب صور ما عدا خريطة واحدة في مطلعه. لكني فضلت ادخال بعض الصور لتشوق القارئ على مطالعة الكتاب، وهي صور مواقع لم تتغير منذ عهد الرحلة مثل الجسر العباسي في زاخو او المنارة الحدباء في الموصل وغير ذلك.

رأيت ان الاستاذ يعقوب سركيس اعتمد على بعض نصوص هذه الرحلة في بعض مقالاته فذكرتها، في محلها، وكذلك الاستاذ لونكريك صاحب كتاب« اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث».

وضعت للكتاب فهارس متعددة: للاعلام والاماكن وما الى ذلك لترشد القارئ الى اهم مواضيع الكتاب وتسهل عليه عملية مراجعته.

واذ انهي هذه المقدمة اتقدم بالشكر الى كل الذين تعاونوا معي واخص بالذكر الدكتورة وسن حسين محيميد جزاهم الله عني وعني محبي التراث وادب الرحلات خير الجزاء.

الاب د. بطرس حداد

بغداد- 2009

من مقدمة المؤلف

بعد اقامة طويلة في فالاكيا، واذ كنت عائداً من فينا الى القسطنطينية، وفي نيتي ان استمر في رحلتي الى جيورجية، واذا بالسيد سليفان Sulivan الذي ارسلته شركة الهند الانكليزية بصفة «مقيم» وصل الى السيد انزلي Ainslie السفير البريطاني لدى الباب العالي. وقد غمرني هذا السفير بطيبعته، وعنده تعرفت بالسيد سليفان، الذي حثني على مرافقته الى البصرة من حيث سوف يبحر الى الهند فوافقت بلا تردد، اذ ليس باستطاعتي ان اجد فرصة افضل لأشباع رغبتي في السفرات البعيدة المدى. وقد كانت هذه السفرة من افضل الرحلات لكنها كانت في الوقت نفسه من اصعب الرحلات واكثرها خطورة.

بالامكان الذهاب من القسطنطينية الى البصرة بالطرق التالية:

اولاً : من حلب ثم عبور البادية الكبرى.

ثانياً : من حلب ـ اورفا ـ دياربكر - الموصل ـ بغداد ثم البصرة : وهذا هو الطريق المعتاد الذي يسلكه الرحالة الاوربيون.

ثالثاً : من حلب، اورفا، وماردين والبادية الكبرى.

رابعاً : من حلب الى البادية الصغرى (بين النهرين).

اختار السيد سليفان طريقاً خامساً غير معروف رغم انه اقصر الطرق، وهو ذاك الذي يسير فيه سعاة بريد السلطان، فقد خطط السيد سليفان ان نصل الى دياربكر ومن هناك نرحل الى الموصل ثم بغداد عن طريق دجلة...

لقد كتبت مذكرات دقيقة عن احداث رحلتنا واضفت اليها بعض الملاحظات. ويجد القارئ فيها ايضا معلومات مفصلة في التاريخ الطبيعي والنبات والزراعة والجغرافية القديمة والحديثة والآثار، وطريقة عيش الناس والعادات المنتشرة بين شعوب هذه البلاد.

كما اردت ان اعطي معلومات دقيقة عن تجارة هذه البلاد التي لايزورها الا النزر القليل من الاوربيين، وذلك لكي تكون رسالتي مقبولة ومفيدة، أكان للمفكرين ام للتجار الذين يبحثون عن مزيد من الاطلاع، فان توصلت الى تحقيق هاتين الغايتين فأكون حينئذ قد حققت أملي.

الفصل الاول:الانطلاق

في 30 نيسان 1781 ركبنا قارباً يونانياً في منطقة الطوبخانة في العاصـمة (اسطنبول)... وبعد ان نزلنا الى البر شرعنا باعداد القافلة، فاختار سليفان ان يعـد له تختروان[1] وكانت القافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين شخصاً، وثمانيـة وعـشرين حصاناً: عشرة منها لركوبنا وايضاً للكروان باشي اي قائد القافلة، وحصانان لحمل الخيام... وانواع النبيذ وخاصة نبيذ بوردو...[2]

قد يتبادر الى الذهن هذا السؤال عن مقدار نفقات مثل هذه القافلـة، فـأقول: بانها لا تقل عن عشرين الف قرشا[3] من اسطنبول الى البصرة.

الفصل السادس[4]:الرحيل من سيواس والوصول الى قبان

اعتمدنا على عدد كبير من الحراس: سبعة رجال، وواحـد كـردي حامـل الفرمان، وعدد من المسافرين ونحو ثلاثمائة حمار وبغـل مـع اصـحابهم جـاؤا وانضموا الى القافلة، فانطلقنا في الاول من حزيران.

الاكراد من قبيلة الرشيوان Ruscivan ليس لهم سكن دائم، فهم ينتقلون مـن مكان الى آخر عائشين تحت الخيام، يمضون الشتاء بجوار حلب وعلـى ضـفاف الفرات حيث يكثر الكلأ، وفي شهر ايار يرحلون الى ارضروم، يحكمهـم باشـا لا يبالي باوامر السلطان ولا بموظفيه، كل ما هناك انه يؤدي للباب العالي مئة كـيس يجمعها بالقوة من شعبه، والشعب بدوره يحصل عليها من المسافرين عن طريـق السرقة والسطو. فهناك ضريبة عن كل خروف. وهناك ضـريبة رأس عـن كـل عائلة. وهذا الباشا يبيع الوظائف الى رؤساء القبائل الـذين يريـدون ان يـشتروا.

---

[1] ــ تختروان (فارسية)تعني السرير السيار وهو واسطة للنقل بشكل صندوق مستطيل تحملـه دابتان يستعمل عادة لنقل المرضى والشيوخ ، ومن يبحث عن راحته .

[2] ــ سيستيني من هواة الخمور فيسال عنها في كل مكان يحل فيه ويعلق على جودتها .

[3] ــ القرش ترجمة لكلمة بياسترا Piastra اما قيمة القرش فقد أختلفت على مر الزمن .

[4] ــ اهملت الفصول 2 الى 5 لعدم فائدة المعلومات للقارئ العراقي .

ويحدث احياناً انهم يرفضون الدفع فلا يبقى امامهم الا قتل الباشا كما حدث في العالم الماضي لعمر باشا.

الفصل السابع: السفر من قبان والوصول الى ديار بكر

تركنا منطقة المناجم في الصباح الباكر، وسرنا مدة ثلاث ساعات في طريق الجبل، وكان طريقاً ضيقاً لكنه ممهداً، وكان هناك جدول يجري في العمق.

بعد سبع ساعات دخلنا في طريق ضيق ادى بنا الى منطقة خربوط الواسعة حيث نجد قرى عديدة متناثرة للارمن ومن السكان المحليين الآخرين. ان خربوط هي بلدة واسعة تقع على جبل وتنتصب في اعلاها قلعة قديمة ترجع الى العهد الارشاقي يديرها موظف برتبة سردار[1].

قبل الوصول الى دياربكر[2] بفراسخ قليلة[3] قررت ان اتقدم القافلة لاجد مكاناً في المدينة نحل فيه، فاصطحبت احد الخدم وتوجهت؛ وكنا لا نعلم كم من الوقت سنبقى هنا وقد نضطر الى المكوث هنا اياماً عديدة، ولان المناخ كان حاراً جداً فان البقاء تحت الخيام لم يكن ممكن ولذلك نحن نحتاج الى بيت للنزول فيه.

على بعد فرسخ واحد من دياربكر توجد قرية ارمنية تتجمع القوافل فيها عند وصولها وتنطلق منها ايضاً عند رحيلها.

الفصل الثامن: الوصول الى دياربكر والمكوث فيها

لاحظت باهتمام، ولعلي اول من فعل ذلك، اذ اني تمعنت جيداً في اسوار المدينة فرأيتها مشيدة بصخر مقتطع من حمم بركانية[4]، وان المدينة قائمة على بقايا

---

[1] ــ سردار (فارسية) تعني رئيس الجيش .

[2] ــ الحموي : معجم البلدان 1 : 66 ؛ 2 : 636 .

[3] ــ الفرسخ lieu يساوي اربعة كيلو مترات .

[4] ــ سميت دياربكر " قره امد " اي امد السوداء لان الحجارة المستعملة للبناء كانت سوداء اللون لانها من حمم البراكين الخامدة .

براكين. فالبراكين التي دمرت عدداً من المدن فانها عمرت هذه المدينة، وهذا ما يقال ايضاً بخصوص مدينة كاتانيا في صقلية[1].

ولما كانت اسوار المدينة والبيوت كلها مشيدة بمثل هذه الصخور التي تعكس اشعة الشمس لذلك فالحرارة هنا عالية جداً في الصيف.

السور حسن البناء وفيه 72 برجاً. تفصل الواحد عن الآخر مسافة محدودة، وتقوم في هذه المسافات دعائم تمنح السور مزيداً من القوة. ويروى نقلاً عن كتابة جدارية لم يعد لها وجود الان، بان هذه الابراج شيدت على عدد تلاميذ السيد المسيح[2] من قبل الامبراطورة اودكيا Eudoxia[3] يحيط بالسور خندق... ويجري نهر دجلة على مقربة من المدينة، ولها قلعة ملتصقة باسوار المدينة وتقع على مرتفع امامه هاوية كبيرة من تكوين الحجم البركانية.

اسم هذه المدينة «دياربكر» عربي النجار لكنها كانت تسمى قديماً قلعة آمد باسم اميرة عملت على تشييدها على ما تروي التقاليد المحلية، ويسكنها اتراك[4] ويعاقبة[5] وسريان وكلدان ويونانيون واكراد؛ ويتكلم سكانها التركية والعربية والكردية والارمنية والكلدانية. اما عن عدد سكانها فلا اظن انهم يصلون حالياً الى اكثر من خمسين الف نسمة. وذكروا لي ان المدينة كانت في سنة 1756 تضم نحو اربعمائة الف نسمة لكن هجوم الجراد على مزارعها سنة 1757 خربها وابادها فحدث قحط قاتل تلاه وباء اجتاح البلدة فأباد ربع سكانها، ولم تسترجع المدينة عافيتها بعد هذه النكبة. ومهما يكن من امر فان رقم اربعمائة الف نسمة هو رقم مبالغ فيه.

---

[1] ــ كاتانيا مدينة وميناء في جزيرة صقلية ــ ايطاليا كانت على مدى الاجيال تحت رحمة بركان اتنا Etna .

[2] ــ كما في متى 10 : 1 ــ 4 ؛ مرقس 2 : 13 ــ 19 .

[3] ــ الامبراطورة اودكسيا زوجة الامبراطور البيزنطي ارقاديوس (ت 408 م) وعرفت بلقب امبراطورة الشرق (ت 404 م) .

[4] ــ قوله اتراك على ما يظهر لا يشير الى القومية بل الى الدين اي انه يتكلم عن المسلمين عامة

[5] يريد بهم السريان الارثوذكس .

للمسلمين في دياربكر مساجد عديدة، وبينها ما يستحق زيارة المسافر والاهتمام «اولو جامعي» Ulu – Giami بعض اقسامه لا تزال فيه البناء، انه عمل جميل واظنه يرجع الى زمن الخلفاء. اما الكاثوليك فيدعون انه كان في الاصل كنيسة للسيدة العذراء.

في المدينة عدد من الخانات والحمامات العامة والاسواق، والماء كثير وكذلك الثلج متوفر في فصل الصيف.

للصاغة زاوية جميلة في السوق تتكون من عدد كبير من الدكاكين.

للارمن واليعاقبة كنائس عديدة، ولهؤلاء اسقف خاص بهم. اليونانيون هم على المذهب الكاثوليكي[1] لكن عددهم قليل ويتكلمون العربية اما اليونانية فقليل جداً.

اما مرسلو مجمع البروبغندا اي مجمع انتشار الايمان[2] فهم: كاهن كبوشي[3] يساعده اخ بسيط وكلاهما من اصل فرنسي. وبهذا الخصوص يذكرنا تافرنييه[4] انه على عهده كان المرسلون ينزلون في احد الخانات، اما اليوم فلهم ديرهم الخاص وفيه معبد للصلاة.

للكلدان الذين هم على الطقس الكاثوليكي كنيسة خاصة بهم[5]، ولهم في دياربكر مطران اسمه يوسف[6] كنت قد تعرفت عليه في اسطنبول سنة 1779، انه

---

[1] اظنه يريد ابناء طائفة الروم الكاثوليك .

[2] هو احد المجامع العاملة في خدمة الكنيسة تاسس في روما سنة 1622 ولايزال قائماً .

[3] احد اتباع طريقة القديس فرنسيس الاسيزي (1182 ـ 1223) عرفوا بهذا الاسم نسبة الى غطاء الرأس الذي يميزهم عن الرهبان الاخرين ويسمى بالايطالية كبوجيو .

[4] رحالة فرنسي زار العراق سنة 1644 وترك وصفاً لرحلة نقله الى العربية الاستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد بعنوان : العراق في القرن السابع عشر ، بغداد 1941 .

[5] كان للكلدان كنيسة عريقة في دياربكر قائمة على اسم الشهيد مار فيثون من ابناء القرن الخامس الميلادي اذ استشهد سنة 448 م . انظر : الاب بطرس حداد : سيرة الشهيد مار بثيون بغداد / 2000 .

[6] انه البطريرك يوسف الرابع ، انظر ذخيرة الاذهان 2 : 351 .

رجل الروح ومتجرد من التعصب، ولقد اصلح عدداً كبيراً من الكتب ــ الطقسية ــ الكلدانية[1]، ويمتاز بسيرة حكيمة مكملاً واجبات وظيفته كلها كما يليق، لكنه كالآخرين يعيش بعزلة وخضوع اقرب مما يكون الى الاذلال.

يبلغ عدد الكاثوليك نحو ثلاثة الآف نسمة.

ان الكبوشيين الذين يعرفون في كل مكان بالاخوة المتسولين[2] ، لم يكونوا كذلك عندما زرتهم اذ ما كان ينقصهم شي !.. وارادوا ان يقنعوني بانهم يكسبون الناس لله. ورايت انهم ليسوا على وفاق مع البطريرك المذكور وتصرفهم هذا يلحق الاذى بالديانة...

ويسكن دياربكر تلميذان آخران من خريجي بروبغندا: الواحد اسمه المونسنيور شمعون ــ بطرس مطران ماردين على الكلدان، والآخر اسمه كوركيس غالو الذي اكمل دراسته في روما ويتكلم الايطالية واللاتينية، لكني اراه يهتم بالتجارة فهي اكثر فائدة له من خدمة الكهنوت لانه يتقن جيداً طرق التجارة!

ان الارمن هم اغنى التجار في دياربكر؛ وافضل بيوت الصيرفة فيها هو محل الاخوين صاري فتوح اوغلو[3]. وهناك صرافات من اليعاقبة.

النقود المنتشرة هنا الى جانب العملة المحلية الخاصة بالسكان: الزكينو البندقي، والفلورينات والريال الامبراطوري [الالماني][4].

في صباح اليوم التالي لوصولنا ذهبنا لزيارة الويودة[5] وهو الرجل القوي والذي له تأثير اكثر من الباشا نفسه واسمه « شيخ اوغلو» وقد استقبلنا استقبالاً حسناً على طريقة الشرقيين ووضع تحت تصرفنا رجلين من الانكشاريين ليرافقانا

---

[1] اشرف على طبع كتاب طقس القداس الكلداني بقطع كبير في روما سنة 1767 .

[2]. كانت بعض الرهبانيات تعتمد على الصدقات في معيشتها كالفرنسيكان والدومنكان فعرفوا بالمتسولين.

[3] تطرق الى هذا الصيرفي الاستاذ يعقوب سركيس:مباحث عراقية 208:3.

[4] المرجع نفسه 3 : 65

[5] الويودة لفظة صقلبية تعني الرئيس او الحاكم ، تداولها الاتراك خاصة في الولايات الاوربية ولكن ايضاً في دياربكر وماردين بمعنى رئيس الشرطة او المتسلم

لزيارة الوالي الذي وصل من حلب حيث كان مسؤولاً واسمه عثمان، ويعرف عنه انه من محبي المال اكان هو شخصياً ام معاونه عبدل باشا الذي على ما قيل كان ان يخرب حلب.

رافقنا « شخص يدعى» « طبيب حنا» وهو طبيب كاثوليكي وفي الوقت نفسه يتعاطى التجارة، والصراف « صارى فتوح» الذي حمل اليه السيد سليفان رسائل توصية وورقة اعتماد بدراهم، وكان معنا ايضاً الاب الكبوشي. ولقد تركنا الوالي ننتظر مدة طويلة في ممر قذر رغم ان القواص اميني حمل اليه رسائل الوزير والباشا... ثم استقبلنا حسب المراسيم المعهودة والقى علينا اسئلة تافهة وبعد ذلك خرجنا...

وقد اراد طبيبنا ان يأدب لنا في بستانه، فدعا بعض الصيارفة، والبطريرك ومطران ماردين، وهذا الرجل ــ اي الطبيب ــ متقدم بالسن، ويمارس الطب منذ زمن طويل بحيث حصل في هذه المدة على شهرة حسنة ولذلك يتمتع باحترام كبير، وترى بيته في كل وقت مليئاً بالمرضى الذين يأتون لمراجعته؛ وهو في الوقت نفسه طبيب الباشا الخاص ولذلك عليه ان يقوم بزيارته يومياً.

وهو يمارس التجارة ايضاً خاصة المتاجرة بالعقاقير... البطريرك يمت اليه بصلة القرابة، وبسببه يتعرض الكلدان اقل من غيرهم الى المضايقات.[1]

---

[1] – توفي حنا طبيب سنة 1784 انظر : الاب بطرس حداد : الاب جبرائيل دنبو مؤسس الرهبانية الكلدانية ، نينوى 2008 ، ص 49 .

الفصل التاسع

الرحيل من ديار بكر والوصول الى ماردين

اخبرونا بان طريق ماردين قد اصبح خطراً بسبب ثورة شعبية اجبرت الويودة على الهرب من مركزه. وزودنا والي ديار بكر على طلبنا بسبعة حراس مع جوخدار[1]، كما اعطانا كتاب توصية موجه الى الآغا[2] المدعو يوسف لكي يزودنا بعدد آخر من الحراس فالامر ضروري جداً من اجل سلامتنا.

تركنا المدنية في الصباح الباكر، وقد هرع الناس في اثرنا لان التختروان اثار فضولهم، فهذه الواسطة للنقل مخصصة عادة لحمل النساء، وظن هؤلاء الذين لحقوا بنا ان في معيتنا نساء فتاقوا لرؤية وجوه اوربيات.

كان يوسف آغا يسكن في احدى القرى الكردية، وكان المناخ حاراً جداً فتوقفنا للاستراحة هناك واذا بهذا الجبار الصغير آت لرؤيتنا فوعدنا بانه سيضمن سلامتنا؛ وعلى هذا الاساس صرفنا حراسنا بعد ان منحناهم عشرين قرشاً[3] فلم يرضوا بالمبلغ...

هناك طريقان للسير الى الموصل: طريق الصحراء وطريق الجبل وهي اطول: وكلاهما مزعجان.

واما الذهاب عن طريق النهر فهو افضل واسهل واكثر اماناً في حالة كثرة الماء في النهر.

استأنفنا السير مساء برفقة يوسف آغا وابنه مع تسعة رجال لحراستنا وتركونا بعد ان تسلمنا آغا آخر من قبيلة مللي وزودنا هذا الرجل بما كنا بحاجة اليه...

---

[1] ــ جوخدار (: فارسية) وظيفة في جملة حاشية الوزراء والولاة .

[2] ــ الآغا (: تركية) تعني السيد او الموظف الكبير وقد يكون مدنياً او عسكرياً او مستخدماً واكثر استعمالها الى اليوم لرؤساء العشائر الكردية .

[3] ــ Piastre وحدة نقدية عثمانية اختلفت قيمتها باختلاف الزمن .

واكملنا السير نحو ماردين[1] فتوقفنا على مسافة من المدينة عند اقدام الجبال الشماء، اذ بعد هذه الجبال ينفتح امامنا سهل صحراوي واسع هو سهل ما بين النهرين فترى في الافق البعيد جبل سنجار وهو اعلى قمة في تلك الصحراء.

استضافنا في ماردين الاب الكرملي[2]، وكان بيته نظيفاً وبارداً ومريحاً. وفيه مصلى صغير جميل. وأصل هذا الاب من البندقية ويقوم على خدمته رجل من البندقية ايضاً.

اخبار عن ماردين

يسكن هذه المدينة اتراك واكراد وعرب وارمن وكلدان ويعاقبة، ويتكلمون التركية والعربية والكردية والارمنية والكلدانية والسريانية. ويبلغ عدد السكان نحو خمسة الاف نسمة.

للمسلمين عدد من الجوامع والحمامات والخانات. للكلدان كنيسة واحدة[3] فيها مطران لكنه حالياً يسكن في دياربكر[4]. الارمن كلهم كاثوليك ولهم مطران اسمه بطرس لعازر وقد اتم دراسته في كلية بروبغندا [روما] ولذا يحسن التكلم بالايطالية واللاتينية اضافة الى اللغات الشرقية، وهو من مواليد انقرة، وبالحقيقة هو خادم فاضل لله تعالى.

اما اليعاقبة فلهم بطريرك[5] وعلاقته على ما يظهر ليست حسنة مع الارمن لانه يثير عليهم جدالات لا هوتية، وبذلك يستفيد الاتراك من الطرفين عندما يخلصون من السجن هذا الطرف او الآخر، فهذا حال العالم على حد قول المثل اللاتيني « عندما يتعارك اثنان فالثالث هو الرابح».

---

[1] ــ قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة . . . قدامها ربض عظيم فيه اسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الاخرى. معجم البلدان 4 : 390 .

[2] ــ النسبة الى جبل الكرمل قرب حيفا في فلسطين هناك نشأت هذه الرهبنة ثم انتقلت الى اوربا. وقدم بعض افرادها الى الشرق كالبصرة وبغداد واسسوا في البلدتين ديراً لهم .

[3] ــ انها كنيسة عريقة مبنية على رسم مار هرمزد الشهيد .

[4] ــ سبق ذكر اسمه في الهامش 24 .

[5] ــ كان البطريرك انذاك مار اغناطيوس جرجس الرابع (1768 ــ 1781) .

يوجد هنا كما في دياربكر جماعة اخرى تسمى «الشمسية»[1] اي عباد الشمس، ويقال انهم من نسل اسماعيل، وليس لهؤلاء معبد للصلاة ولا كتب، وترتكز عبادتهم بتأدية سجدات امام هذا الكوكب، لكنهم يترددون الى كنيسة اليعاقبة ويطلبون منهم العماد. وبهذا الخصوص يقال ان السلطان مراد الرابع[2] توقف في ماردين في طريق عودته من حملته لاسترجاع بغداد[3] فعرف بوجود هذه الملة، فاستفسر عنها فقالوا له انهم لايملكون اي كتاب مقدس وهم لايتبعون تعاليم القران. فامر بان تباد هذه الجماعة فتدخل مطران اليعاقبة وتشفع من اجلهم فحصل على عفوهم بشرط ان يصيروا يعاقبة، وبالطبع قبلوا ذلك وفضلوه على الموت. انهم لايأكلون اللحم ولا الاسماك. وعندما يموت احدهم تدفن معه عصا وخيط وابرة وسكين في يده.ذكر تافرنييه في رحلته ان زوجة السائح الشهير بيترو ديللافاليه اصلها من ماردين[4]. زرنا المسلم وطلبنا منه ان يزورنا بحراس جدد بعد ان صرفنا الحراس السابقين وزودناهم بكتاب يشهد بحسن خدمتهم واعطيناهم ستة قروش.

---

[1] ــ الاب انستاس ماري الكرملي : الشمسية . مجلة لغة العرب 7 (1929) ص 193 / 203 ، وعن ميلهم الى اليعقوبية / ص ، 198 .

[2] -مراد الرابع (1623-164)

[3] -الغراوي : تاريخ العراق بين احتلالين 4 : 208 وما يليها .

[4] -رحالة ايطالي (1586-1652) باب الشرق ووصف البلاد التي زارها وصفا سهبا وتزوج في بغداد من فتاة اسمها معاني جويريدة ، وقد ترجمت الى العربية نص رحلته ونشرناها سنة 2001

الفصل العاشر

الرحيل من ماردين والوصول الى نصيبين والجزيرة والموصل

تحركنا عند منتصف الليل، وبعد ثلاث ساعات من السير المستمر في ارض منبسطة وواسعة مزروعة بالقمح والشعير والحبوب المختلفة وصلنا الى قرية عرين فعبرناها تاركين أياها عن يسارنا. كان الاب المرسل قد اخبرنا بوجود اثار قديمة جديرة بالزيارة في هذه النواحي، فتركنا القافلة انا والسيد سليفان وذهبنا يرافقنا حارس واحد لزيارة تلك الاثار: فرأينا بناء كبيراً فوق اكمة، يوناني الريازة. وعند الدخول نرى هناك قاعة كبيرة معقودة، وفوق اطار الباب توجد كتابة يونانية لم نستطع قراءتها لارتفاع موقعها...

عدنا الى القافلة واكملنا السير لمدة ساعتين فوصلنا الى سيركياكيان serkiakan وهو حصن صغير متهدم في وسط ارض واسعة ويسكن قرية بعض العرب. قيل ان السلطان مراد الرابع امر بهدمه اذ كان في طريق عودته من بغداد. وسيركيكيان اعطى اسمه لاحدى القبائل العربية...بعد ذلك نمر بنهر صغير اسمه كورده corde حتى نصل الى نصيبين.

نصيبين

ان نصيبين تلك المدينة الكبيرة العامرة بالسكان، التي كانت مستعمرة رومانية على عهد سبتموس سيفيروس[1] م تعد اليوم الا قرية صغيرة. شيدت هذه المدينة عند سفح جبل ما زيوس Masius لتضع حداً لتحرشات الفرثيين[2]. وكانت من كبرى المدن ما بين النهريين. حتى ان اليونان اطلقوا عليها اسم انطاكية مغدونيا لقربها من نهر مغدونيا[3] المدعو ايضا هرماس... حصلت على بعض المداليات او

---

[1] -سبتموس سيفيروس امبراطور روماني (193-211) .

[2] -شعب كان في منطقة خراسان واسس سلالة الفرثيين التي حكمت 250 ق. م-224م

[3] -ادي شير : تاريخ كلدو واثور :41

المسكوكات في نصيبين... لم يَبق من عظمة نصيبين غير الخرائب، وتجد بالكاد بينها بيوتاً حقيرة للاكراد والناطرة، وهؤلاء لهم مع ذلك كنية.

ان القديس يعقوب - ولا اعلم من يكون - كان من نصيبين، وقبره هناك يدلك اليه الناس وهو مصلى مرمم قائم بين انقاض[1] لم نجد مكانا في القرية لننزل فيه، فنصبنا خيامنا لنستريح فيها، وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل انطلقنا فعبرنا جسرا مشيدا بالاحجار... ولما كان المناخ حارا جدا فضلنا ان نسير بالليل لان هواء الليل والصباح لطيف نوعا ما. كنا نسير طوال الليل صعوداً وهبوطاً وفي دروب مزعجة،وفي الصباح اذا بنا نجد انفسنا تجاه الجزيرة [2] فنزلنا في القلعة.

الجزيرة

تقع الجزيرة على شاطئ دجلة، وهناك جداول عديدة تصب في دجلة فتكون ما يشبه الجزيرة، وتقوم هذه المدينة عليها ولذا اتخذت هذا الاسم... يذكر ان تيمورلك [3] كان قد شن الحرب على هذه الاطراف وكان للكلدان كنيسة وخزانة كتب تضم مخطوطات شرقية عمد الى حرق الكنيسة والمكتبة معاً[4].

الجزيرة مقاطعة مستقلة تعود الى اسرة كردية عريقة حصلت عليها منذ اجيال عديدة، واميرها الحالي اسمه محرم بك ابن مشرف بك، وهو في هذه الايام منشغل بالحرب مع سيد « بتليس» والذي يدير الجزيرة في غياب اميرها اخوه فرهاد وهو رجل عظيم الجثة وقد جاء للسلام علينا و عرض خدماته علينا فقدم لنا مكاناً ننزل فيه مجاوراً لمحل سكناه، وقد ارتحنا فيه لانه وقانا من الحر الشديد... لقد توفي فرهاد هذا سنة 1784 وبسبب وفاته مات الاب فنسنت دي

---

[1] -انه القديس يعقوب اسقف نصيبين (309 -338) ادي شير : المرجع نفسه 2:41-43: وقوله لااعلم من يكون يشير الى جهلة بالتاريخ الكنسي ، وعن قبره حاليا انظر ، انظر نوري ايشوع رحلة حج الى الابرشيات المنسية ، مجلة بين النهرين 35 (2007) ص 83 -106

[2] ـ معجم البلدان 2 : 79 .

[3] ـ الامبرطور المغولي (1336 ـ 1405) .

[4] ـ كانت كنيسة الكلدان في الجزيرة على اسم الشهيد ماركوركيس .

روفو، فهذا الأب دعي من دياربكـــــر للاهتمام به لانه كان معروفـــاً بممارســته الطب، ودعي ايضاً «حنا طبيب» الحكيم المحلي الذي سبق ذكره. وقد وصل الاب روفو اولاً فأراد ان يشرع اولاً الاهتمام به لنيل شرف معالجته مقسماً برأسه بفائدة دوائه. لكن الذي حدث ان المريض لفظ انفاسه بعد تناوله الدواء؛ فهجم اهل الميــت واصدقاؤه على الأب الطبيب في الغرفة نفسها فقتلوه.

يسكن الجزيرة: اكراد وسريان وارمن، واللغة السائدة هـــي العربيـــة، كمـــا يتكلمون التركية ايضاً، للسريان كنيسة خاصة بهـــم وكـــذلك الارمـــن. وان ديـــر الموصل للاباء الدومنكان يرسل احد افراده للعمل هنا وفي ظني ان سعيهم لا يلقى نجاحاً.

عبرنا دجلة على جسد من قوارب مربوطة الى بعضها بسلاسل لان الجـــسر الحجري القديم متهدم... والطريق يسير بمحاذاة حافات النهر، وفي الليـــل ابتعـــدنا قليلاً عن الشاطيء حتى وصلنا الى مكان اسمه « نشوفان» Nucheravan ويقال ان سيدنا نوح اعطى هذا الاسم الذي يعني: خروج نوح. للآباء المرسلين الذين لهم مبعث في الموصل [اي الاباء الدومنكان] بين حنا؛ ولسعاة البريد ايضاً محطة في هذه المدينة... فالبريد بين نصيبين والموصل لا يتوقف الا نادراً.

عند المساء تحركنا وبدأنا بالمسير، فرأيت فوق احد الجبال شـــعلتين ظننـــت للوهلة الاولى انهما تنبعثان من فوهة بركانية، لان رأسي كان مليئاً بتخيلات عـــن البراكين. ثم علمت من اهل المنطقة بان ذلك الجبل حسب اعتقادهم هو مكان توقف فلك سيدنا نوح وبان الملالي يذهبون للزيارة حـــاملين المـــشاعل، وهـــذا الجبـــل يدعى«جودي»[1] .

---

[1] ــ جبل جودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر . . . عليه استوت سفينة نوح لمـــا نـــضب الماء . معجم البلدان 2 : 144 .

زاخو

عند انبلاج الصباح وصلنا الى زاخو الواقعة على ضفاف نهر كرنيب Karnib، وهي مثوى احد البكات الاكراد[1] من قبيلة بيديفا[2] Bediva. ويسكن زاخو اكراد وكلدان ويهود، وفيها قلعة صغيرة وجسر مجري من عمل الفرس[3]. وفيها بساتين وكروم واشجار تين وخوخ ومشمش.

يستوفي البك الكردي من المسافرين ثلاثة قروش عن كل حيوان حمل مهما كانت الاعمال. للكلدان في زاخو كنيسة[4]، وللمرسلين القادمين من الموصل بيت ايضاً.

هذا النهر هو المعروف باسم نيسيفور[5] Nicephore عند الاقدمين، واما نهر درنه Durnah الذي يصب في دجلة وتستطيع الاكلاك ان تمخر فيه.

اظن ان زاخو هي تيكوانوسيرت Tigranocerte القديمة التي كان يجري امامها نهر نيسيفور المذكور اعلاه.

ان البك المسيطر هنا هو اعور، وقد جاء لزيارتنا، وكانت غاية زيارته للتأكد من اننا نحمل فرامين رسمية[6] وخلاف ذلك سيستوفي منا الاتاوة.

ان النهر هنا يشكل ما يشبه الجزيرة وتقوم عليها هذه القرية، واهلها يتصرفون بفظاظة واضحة وكدنا على وشك ان نتعارك معهم في خيامنا نفسها، ولكننا تلافينا زياراتهم المزعجة وبقينا في الخيام يقظين رغم الحر الشديد.

---

[1] ــ المعروف ان الاكراد يلقبون رؤساءهم بالآغا ، ولعل لقب البك كانت رتبة تركية منحت له .

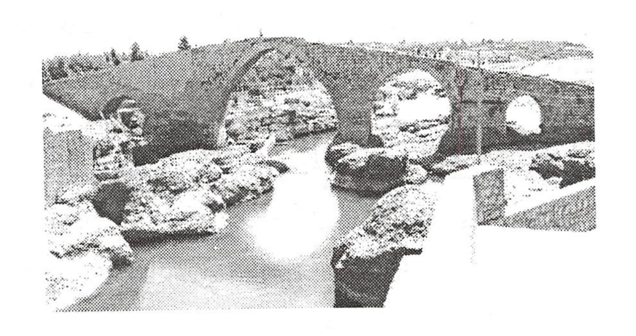
[2] ــ لعله يريد بهدينان . العزاوي : عشائر العراق 2 : 193 .

[3] ــ انه الجسر الاثري المعروف بالجسر العباسي ويعرف محلياً باسم " جردلالي " وقوله ان الجسر " من عمل الفرس " قول لا يستند على اساس اثاري علمي .

[4] ــ انها كنيسة مار كوركيس ، والكنيسة الحالية بهذا الاسم شيدت في مطلع القرن العشرين على انقاض كنيسة قديمة بالاسم نفسه .

[5] ــ النهر الذي يمر بزاخو هو نهر الخابور .

[6] ــ فرمان (= فارسية) والجمع فرامين : ارادة ملكية صادرة عن السلطان .



الجسر العباسي في زاخو

سنجار

انطلقنا مع طلوع النهار متوجهين جنوباً بين جبال وعرة وجرداء، وكانت هنا وهناك اشجار بلوط صغيرة Anagyris اي ذات الرائحة النتنة وشجرة الدفلى. وبعد ان عبرنا هذه السلسلة الجبلية هبطنا اخيراً الى السهل تاركين الى يسارنا موقع سنجار.

وجئنا الى قرية اسمها سيميني Semeni فنصبنا هناك خيامنا بجوار خيام احد الاغوات الخاضعين الى يزيدية سنجار، وكان بالقرب منا بئر لكن ماءها كان مراً وعلينا ان نرضى به.

اليزيدية يعبدون الشيطان[1]، ويسكنون في جبال سنجار وهي سنكارة عند الاقدمين. ويتمتعون باجسام قوية ونظرات ثاقبة مخيفة. ويثيرون الرعب في نفوس القضاة والملالي اذ يقطعون الطريق عليهم عند عودتهم الى اسطنبول [من خدمتهم

---

[1] ـ اليزيديون جماعة منتشرة في سنجار وقراها وفي الشيخان حيث مركزها الديني، ولا ارى انهم يعبدون الشيطان بل يبتعدون عن اهانته لئلا يؤذيهم فأن الله صالح عباده بالتأكيد . انظر :سليمان صائغ : تاريخ الموصل 1 : 296 ؛ الدملوجي : اليزيدية ، الموصل ـ 1949 .

في العراق] اذ يعلمون بان جيوبهم تكون مليئة بالمال عند انهاء خدمتهم. يبلغ عـــدد نفوسهم نحو اربعة الآف نسمة، وكلهم اقوياء متسلحين بالرماح.

تقع سنجار في وسط سهل صحراوي الى الجنوب من نصيبين فـــي منطقـــة ربيعة. وتبعد هذه البلدة عن الموصل مسيرة ثلاثة ايام او نحو ذلك، عند سفح جبل خصب جداً، لها قلعة وبساتين ومياه غزيرة، ولذا تجد فيها انواع التـــين والتمـــور[1] الفاخرة.

ان قصر عباس انوي Abbas – Anevi المشهور بمياهه وببـــساتينه كـــان محل اقامة ملك الفرس، واحد هؤلاء الملوك اعطاه هذا الاســـم. يـــروى ان احـــد المنجمين تكهن لوالد ملك شاه Melik – Sciah بان زوجته ان لم تضع حملها في اليوم الفلاني فسيكون ابنه اميراً ولذلك عمل كل ما باستطاعته لتتأخر الولادة يومـــاً واحداً.

كانت سنجار مستعمرة رومانية فقد وجدت فيهـــا مـــسكوكات للامبراطـــور سفيروس وكذلك للامبراطور غورديان[2] وترانكوللين. وقد اقتنيت قطعتين الواحـــدة لغورديان ولترانكوللين؛ والاخرى لسيدة جالسة على صخرة وامامها سنابل وقائـــد مئة مسلح بقوس.

وفي الاسفل منظر نهر. اما القطعة الاولى فتمثـــل الامبراطـــور غورديـــان وترانكوللين وجهاً لوجه لان هذه رافقت ابيها الامبراطور في حملتـــه. ان الـــسيدة الجالسة على الصخرة هي مدينة ربيعة Rebia المبنية على سفح جبل، اما السنابل فهي رمز خصب الارض، وقائد المئة يشير الى شـــجاعة اهلهـــا ومهـــارتهم فـــي استعمال القوس؛ واخيراً فان النهر يشير الى ساكوراس Saacoras الـــذي يـــسقي المنطقة.

تجد في سنجار بحيرة وفي وسطها جزيرة، وفي اعلى موقع من هذه الجزيرة ينتصب هرم[3]، ان اليزيدية العائشين هناك على قطع الطرق هم من اصل كـــردي؛

---

[1] ــ لم نسمع بوجود النخيل في سنجار ولا في اية منطقة من شمال العراق .

[2] ــ غورديان : امبراطور روماني (238 ــ 244م) .

[3] ــ ان معابد اليزيديين تعلوها عادة قباب مخروطية الشكل .

ويقولون على انفسهم انهم من اتباع شيخ عادي [كتبها شيخ هادي Scieh – Hady] وهم ليسوا بمسلمين ولا مسيحيين ولا يهود ولا وثنيين.

يضع شيوخهم على رؤوسهم طرابيش سود. اما رجال الدين فيلبسون ثوباً اشبه بزي الرهبان الدومنكان[1]، مع ان قباءهم اسود وعباءتهم بيضاء اي بعكس زي اولئك الرهبان. ومن عاداتهم انهم يقتنوا من رؤوسائهم مكاناً في الجنة تسمح لهم ان يرقدوا ــ هناك ــ مع نسائهم، ويدعون ان لا فائدة من الصلاة والصيام، وليس لهم كتب دينية ولا معابد[2]. ولهم ثقة بان شفيعهم الشيخ عادي سيدخلهم الجنة مــن دون اجتهاد من طرفهم. يطلقون على الشيطان لقب «الجلبي» وهو اللقب الــذي يمنحــه الاتراك الى الاشخاص المرموقين. وان تجاسر احد على لعنه في حضورهم فــانهم يقدمون على قتله دون رحمة. ويعتبرون البصق على الارض خطأ عظيمــاً، لكــن يجوز عمل ذلك في اليد ثم تحك اليد بالارض، ويروي زنيفون بان هذه العادة كانت منتشرة بين الفرس.

قيل لي بان لهم في كردستان اميراً يذهبون اليه في يوم معين من السنة مــع اسرهم فيقيمون هناك احتفالاً ووليمة، وبعد ذلك تطفأ الانــوار فيخــتلط الرجــال بالنساء دون نظام.

كان من بين الحرس الذين ارسلوا معنا من زاخو واحد يهودي، ففــي ذلــك اليوم طلب منا ان نعطيه اجره ونسمح له بالعودة الى اهله قبل حلول السبت الذي لا يحل له فيه السفر.

زارنا هناك زعيم اليزيدية تتبعه حاشية كبيرة، وقدم لنا هدية عبارة عن تــين مجفف وهو كثير في منطقة سنجار؛ وطلب منا خمراً فأعطيناه مما كنا حملناه مــن

---

[1] ــ الاباء الدومنكان ينتسبون الى القديس دومنيك (1170 ــ 1221) الذي اسس الرهبنة سنة 1215 : وقدم بعضهم الى الموصل سنة 1750 واسسوا فيها ديراً لا يزال قائماً مزدهراً ، وفتحوا لهم ديراً في بغداد سنة 1965 .

[2] ــ لهم كتاب «الجلوة» وكتاب « مصحف رش» . انظر : الدملوجي ، ص 115 ؛ ولهم معابد وهي مراقد ائمتهم منها في الشيخان وفي بعشيقة وجزاني وفي سنجار . انظر: الدملوجي: المربع نفسه ص 178 وما بعدها .

ماردين وكان قد حمض في الطريق لكنه شربه كما لو كان عسل الورد!... وكان لا بد لنا ان نهدي الى هذا الرجل قطعة قماش، والا فمن المحتمل ان يلحق بنا بعض الاذى استأنفنا السفر في الليل بحماية خمسة رجال يزيديين، فسرنا على التلال وعند سفح الجبل، ورأينا قمماً متوجة بالثلوج وتسيل منها الجداول الى الوديان. جدير بالذكر ان كل القرى اليزيدية التي رأيناها في طريقنا كانت واقعة على التلال ويرتفع في اعلاها حصن صغير.

تلسقف

سرنا طوال الليل وعند طلوع النهار وصلنا الى تلسقف وهي قرية نسطورية[1]. تضع النساء على رؤوسهن عمامة تشبه قالب السكر عندنا. وكن يغزلن خيوط القطن لعمل المقطنات التي تسمى عندهم « بس» Bess ولعلها اللبس Byssus التي عرفها الاقدمون وتكلموا عنها في اثارهم.

كان اهل القرية قد انتهوا من الحصاد وقد بدأوا بمرحلة درس السنابل، فكانت الجياد تطأ اكداس السنابل في البيادر.

كنت في منتهى الانزعاج من بطء تقدمنا، فما كان مني الا ان اتقدم القافلة واسرع بسيري للوصول الى الموصل، ولقد مررت في طريقي بقريتين نسطورتين[2]، كان بقرب احداهما بحيرة صغيرة[3]. وبعد ذلك ضللت الطريق وتهت في البرية، وكدت اكون لقمة سائغة بيد قطاع الطريق لكن احد الاكراد ارشدني الى الطريق الصحيح.

على مسافة فرسخ واحد من الموصل تقوم قرية كردية وبجانبها معبد يجله المسلمون كثيراً اذ يعتقدون انه ضريح النبي يونان [= يونس][4]. وهكذا تتكشف

---

[1] ــ ذكرها ياقوت: معجم البلدان1 : 863 وهي بلدة يسكنها النصارى من ابناء الكنيسة الكلدانية .

[2] ــ القريتان هما : بالمنايا وتلكيف .

[3] ــ ليست بحيرة بل بالاحرى هي تجمع مياه الشتاء ويقال لها الخبرة .

[4] ــ قرية نبي يونس عند اطلال مدينة نينوى لاتزال قائمة ومنظرها جميل .

من بعيد مدينة الموصل، والانطباع الاول ان اسطح بيوتها وجـدرانها تلتهب لان الحرارة عالية وكذلك الانعكاس الحراري.

السهل قاحل، وقد تجد هنا وهناك بعض الخيام المتناثرة الخاصة بالاكراد. والتقيت برجل على حصان فبادرني بالسؤال من اكون؟ فاجبته بالتركية: من جماعة الباشا. ويظهر انه لم يفهمني ولذلك انقطع عن الحديث. ورغم اني لا افهم الكردية لكني – على ما اظن – فهمت سؤاله ? Kiest التي تعني بالكردية: من انت؟ ولفظها قريب الشبه من اللاتينية.

الموصل

عندما وصلت الى الموصل استغرب الجميع من قدومي وحدي من دون ان يحصل لي ما يكدرني، فقد حدث للاب موريس[1] قبل اشهر وكان مع اثنين من زملائه على بعد فرسخ واحد من الموصل اذ هجموا عليه وسرقوه وتركوه عرياناً كما ولدته امه وبقي بهذه الحالة تحت حرارة الشمس.

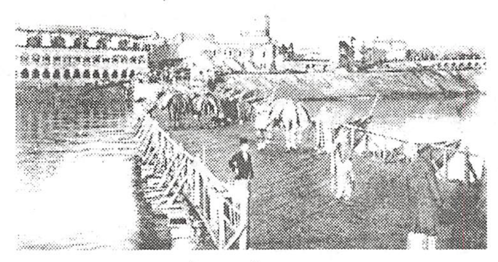
كانت الارض كلها كلسية والحرارة عالية، ولم اعثر في طريقي على اشجار، وكل ما رأيت كان بعض النباتات الشوكية وعرق السوس Aspalathus والخرنوب Carnub. ولكن عند اقترابنا من المدينة رأينا بمحاذاة نهر دجلة بعض البساتين[2] وفيها البطيخ melons والرقي concombres [الخيار] واليقطين citrolille والقرع courge والباذنجان melongene وتنمو هذه كلها بفضل السقي من ماء النهر. ويستخدمون هنا انواعاً من النواعير لسحب الماء بواسطة الدلاء تختلف عن تلك المستعملة عندنا، فهذه يجرها حصان او حمار، ورأيتها غير متقنة الصنع ومتعبة اكان للرجال ام للحيوانات.

---

[1] – الاب موريس كازروني قدم الى الموصل 1762 لسنوات قليلة ثم عاد الى وطنه وجاء من جديد 1779 – 1781 وتوفي في ايطاليا 1790 .

[2] – يتكلم عن مزارع كانت تنتشر على شواطيء دجلة وتزرع بالخضراوات الصيفية كالبطيخ والرقي والبامية والقثاء الذي يقال له الترعوز ويطلق على هذه المزارع اسم " الشاغوق " .

يتم الدخول الى المدينة بما يشبه الجسر مكون من قوارب تتصل بقناطر جسر حجري



جسر الموصل

– هو بحالة سيئة جداً– لذلك يتم المرور عليه الواحد خلف الآخر. وقد انتظرت اكثر من نصف ساعة لكي تعبر اولاً الحمير والجمال والبغال والخيل وفي الآخر يحل دورنا للعبور. وتدفع رسوم الكمرك عند الباب. فالذين هم في طريقهم الى السوق ولا يحملون مالاً فانهم يتركون في الباب خناجرهم او معاطفهم ويسترجعونها عند عدوتهم بعد دفعهم الرسوم التي حصلوا عليها من بيعهم محصولاتهم.

لقد نزلت عند الآباء المرسلين[1]. ولم يكن في البيت احد لدى وصولي. لكن عند منتصف النهار عاد الآباء فاجتمعوا لتناول الغداء، فوجدت بينهم عدداً سبق لي ان تعرفت عليهم سابقاً في اسطنبول.

يدير هذه الرسالة الآباء الدومنكان، وهي تحت الحماية الانكليزية[2]، ولقد كانت هذه الرسالة سابقاً بيد الآباء الكبوشيين، لكن احد الولاة ابعدهم عندما رأهم يوسعون بيتهم فأشتهاه لنفسه واستولى عليه[3].

---

[1] ــ يتكلم عن الآباء الدومنكان وقد ورد ذكرهم في الهامش 59 .

[2] ــ لا اساس تاريخي لهذا الكلام اذ لم تكن الرهبنة في يوم من الايام تحت الحماية الانكليزية لاسباب دينية واجتماعية وسياسية .

[3] ــ نصري : ذخيرة الاذهان 2 : 240 حيث يقول بان الكبوشيين حجروا الموصل سنة 1724 ولم يعودوا اليها .

ديرهم الحالي مريح وفيه كنيسة ملحقة به. لقد تناولت الغداء معهم واكلت من طعامهم، وعلمت بان صراف[1] الوالي قد تسلم رسائلنا المرسلة اليه من الجزيرة، وقيل لنا بان الكلك الذي نحتاج اليه قد تم اعداده.

كان الوالي قد عرف بقرب وصولنا من طبيبه الاب روفائيل[2]، ولهذا ارسل لنا ساعياً الى تلسقف ليخبرنا بانه سيترك الابواب مفتوحة طوال الليل، وسيرسل لنا جياداً مسرجة جيداً لكي لا ندخل الى المدينة في النهار ونحن في التختروان اذ بذلك سنثير فضول الشعب؛ لكن الساعي لم يلتق بنا ولذا فان القافلة اكملت سيرها ووصلت نحو الساعة الثانية صباحاً الى المدينة فنصبت خيامها قرب جسر الموصل.

ذهب الاب روفائيل المذكور في الحال ليرحب بالسيد سليفان، وقاد اليه الجياد الضرورية بحيث يجري دخوله الى المدينة بكبكبة وابهة تليق بمنزلته، ثم يتوجه الى الدير حيث ينزل.

ذهبنا بعد ذلك الى الحمام – العمومي – لكي ننعش اجسادنا ونريحها من عناء السفر، وقد رافقنا السيد ليمريك M-Limerik وهو شاب انكليزي كان في طريقه الى بومبي ليكمل هناك خدمته العسكرية. ولما كانت بشرته شديدة البياض فقد ظنوه امرأة وانتشر الخبر في الموصل باننا ذهبنا الى الحمام مع سيدة، وصارت نكتة الموسم بحيث ان مهرج الباشا اسرع ليروي القصة المختلفة على سيدة فاضحكت الجميع. وكانت الحمامات هنا اقل اعتناء مما هي عليه في دياربكر.

جاءنا افندي الديوان [= تشريفات] ليقدم احترامه للسيد سليفان ويحدد مراسيم المقابلة في ذلك اليوم – فطلب منه السيد سليفان ان تؤجل المقابلة الى اليوم التالي.

كانت شدة الحر قد ارتفعت بسبب دخان كثيف كان يهب علينا من الصحراء، وسبب ذلك ان عرب احدى العشائر كانت قد اضرمت النار في بيادر عشيرة اخرى

---

[1] – انه عبد الاحد صليوا كما في ذخيرة الأذهان 2 : 319 .

[2] – الاب روفائيل تيركونوسكي قدم الى الموصل سنة 1773 وبقي الى ان توفاه الله سنة 1786.

غريمتها. ومثل هذه الحرائق ليست نادرة. ولذلك كنا بالكاد نقدر على التنفس وقد جفت السنتنا وكان لا بد من تبليلها من وقت الى آخر دون توقف.

ماء دجلة هو الماء الوحيد الذي يشربه اهل الموصل، وهو ماء عذب وطيب خاصة بعد ان تجري عليه عملية التصفية. والعادة عندهم انهم يحملون الماء الى البيوت. ورغم ان المدينة قائمة على مرتفع لكن فيها آبار عديدة وهي تحتوي على ماء اجاج فلا يشربون منها الا في زمان الاضطرابات اذ ان كل واحد يغلق بابه ويتمترس في بيته.

ينام السكان فوق السطوح مدة اربعة اشهر في السنة لان غرف البيت تتحول الى افران، فالنوم الافضل يكون تحت النجوم، ومن ذلك اصبح الاشوريون من افضل المنجمين في الدنيا. وانا على مثالهم كنت عندما يعصى علي النعاس اتحول الى منجم، لكني كنت كحاطب ليل لا اكثر لضعف نظري ولسرعة تدفق الدموع من عيني، ولذلك لم استطع الاستمرار في مراقبة النجوم لزمن طويل، وبالكاد استطعت ان اتبين الكوكب المعروف باسم مديشي Medicis.

لهم طريقة لتبريد الماء هي وضعه في آنية من الطين كثيرة المسامات تصنع في العمادية[1]، وتملأ هذه الآنية ماء وتوضع على السطح فيهب الهواء البارد من خلال مسامات الآنية فيبرد ما فيها من ماء. اما عندما يكون الليل رطباً او عندما ينزل الطل فان الجزئيات المائية المتعلقة بالهواء تسد مسامات الآنية فلا يبرد الماء عند الصباح.

من الصعب ان يستخدموا الثلج في الموصل لتبريد المشروبات لان جبال كردستان بعيدة عنها مسيرة ثلاثة ايام ونصف ولذلك يذوب الثلج اثناء عملية النقل.

جاء لزيارتنا الياس الصراف[2]، ودعانا الى الغداء في بيته، ففضلنا ان نذهب مساءً للعشاء. وهناك صراف آخر يوناني هو وكيل بيت سكنافيا Scannavia المالي، فهذا قدم لنا مالاً محولاً علينا من اسطنبول.

---

[1] ــ واحسنها ما يصنع في قرية دوكني [والاصح : ديركني]. انظر:جواد عبد الزهرة الزبيدي : الخزف في العراق قديماً وحديثاً ، مجلة التراث الشعبي 1984 ، العدد 3 ــ 4 ، ص 19 .

[2] ــ ذخيرة الاذهان 2 : 319 .

زيارة الوالي

علمنا ان الوالي ينتظرنا لمقابلته في اليوم التالي المصادف 2 تموز في اول النهار، وقد احضر لنا جوخدار[1] الوالي عدداً من الجياد المطهمة بسروج جميلة، وكان يتدلى سيف من قربوس سرج الحصان المخصص للسيد سليفان.

تقدمنا في سيرنا الى الديوان بنظام. وكان الحراس قد اتخذوا وقفة السلام. فنزل الوالي من قصره على وقع الموسيقى حتى اتى واتخذ مكانه في مقصورة خاصة، وفي هذه الاثناء امتلأ المكان من بطانة الوالي وموظفيه حتى ضاقت الانفاس.

كنا جالسين على كراسي مصنوعة على الطريقة الاوربية، فوجه الوالي الينا الاسئلة المعتادة: متى بارحنا اسطنبول؟ واي طريق سلكنا؟ ثم تبادلنا كلام المجاملات المعبرة عن الصداقة بين الباب العالي وانكلترا، وعن الحرب القائمة الآن.

ثم قدموا لنا القهوة. لكننا شعرنا بان مراسيم الاستقبال كانت مختصرة وقد اهملت بعض اقسامها المشهورة في التقاليد الشرقية التي كنا بانتظارها؛ كما ان السيد سليفان لم يقدم ساعة الذهب التي قال انه اعدها كهدية يقدمها للباشا؛ ولذلك ظهر الوالي منزعجاً جداً وصرفنا قائلاً لنا ان نذهب فنتفقد كلكنا!

وبالفعل ذهبنا الى حيث كان العمل على اعداد الكلك فوجدنا تحت سقيفة قريبة من جامع متهدم كان السلطان مراد الرابع قد شيده وقد صار حالياً مقبرة للمسلمين، وشاهدنا هناك عدداً كبيراً من النساء يصلين.

اسم الباشا (سليمان) وهو من اسرة موصلية وهو واي برتبة ثلاث طوعات. وهو على قول الناس رجل مرح، ولكنه في الوقت نفسه رجل حرب عظيم يهتم كسائر الولاة بافراغ محفظات اتباعه فهذه ـ العادة ـ الميزة الخاصة بالولاة الذين يريدون الولايات بان يكونوا مصاصي دماء في الدولة العثمانية.

ذهبنا لتناول العشاء في بيت الصيرفي الياس، ويسكن في بيت حسن مشيد حسب طراز بيوت دياربكر. هناك في ذلك البيت اتيحت لنا فرصة رؤية ألنساء

---

[1] ـ جوخدار او جوقدار هو الساعي او مدير التشريفات .

وهن يمارسن اعمالهن البيتية: البستهن العادية طويلة على الطراز الشرقي مع اختلاف بسيط بانها اضيق ولا تغطي الجسم كله. وعندما يخرجن من البيت يلتفن بمعطف ازرق اللون[1] ومخطط وبذلك يشبهن نساء كاتانيا في صقلية. ومن اجل الوقاية من الشمس وحماية النفس من الانظار فانهن يضعن على وجوههن برقعاً منسوجاً من شعر اسود اللون يسدل ويرفع حسب الضرورة[2] ويتركن شعر رؤوسهن ينمو ويطول فيجعلنه في ضفائر طويلة مرخاة تتدلى على الظهر وفي نهاياتها شريط اسود مجدول يعقد آخره.

عائلة السيد الياس من حلب وهي كاثوليكية. وهو يتكلم الايطالية، وعلى علاقة متينة بالمرسلين. وكان العشاء جيداً جداً ولذيذاً للغاية[3] ثم عدنا الى بيت المرسلين أي الى ديرهم. ولاحظت ان الأب روفائيل كان منزعجاً جداً لأن السيد سليفان لم يقدم الساعة الى الوالي الذي على ما يظهر – أي الوالي – كان على علم بها. وقال – أي الاب روفائيل – بان الوالي امر باعداد كلك صغير على حسابه للحراس الذين خصصهم لمرافقتنا اكان السيد سليفان اهدى الساعة ام لا؟. فقرر السيد سليفان عندئذ ان يرسل الساعة على يد الاب منصور[4] فذهب الاب منصور الى السراي وهو بناء واسع وجميل فدخل على الوالي واخبره بان السيد سليفان كان قد خطط ان يخرج الساعة اثناء المقابلة، فان طلب الوالي رؤيتها فالسيد سليفان كان مستعداً ان يقدمها هدية، لكن ذلك لم يحدث بسبب النسيان. عندئذ تناول الوالي الساعة واخذها من دون مشكلة وقبل الاعتذار سواء اكان مقتنعاً به ام لا !.. ولكي يظهر رضاه فقد نزع عباءته والبسها للاب منصور، وعند عودته الى الدير ادعى

---

[1] – يشير الى الازار وكان بعضه ازرق اللون (سمائي) بخطوط ذهبية او احمر غامق ، بقي هذا الازار الى الربع الاول من القرن العشرين ثم اهمل استعماله تدريجياً وحلت محله العباءة السوداء .

[2] – كان هذا البرقع منسوجاً من شعر ذيل الخيل .

[3] – ذكر هذا الكلام يعقوب سركيس : مباحث عراقية 1 : 338 – 339

[4] – الاب منصور (فانسان) روفو V. Ruvo قدم الى الموصل سنة 1773 وقتل بعد سنوات كما ورد في الكلام عن الجزيرة .

الاب روفائيل بان الاب منصور ألحق العار بكرامته بقبوله العباءة! اما نحن فبعكس ذلك اعتبرنا ان رفض الحلقة يعتبر اهانة. مهما يكن من امر فان الهدية (هدية الباشا!) تترك انطباعاً حسناً. واني اظن بان الاب روفائيل والوالي كانا يتفاهمان مع بعضهما. ولكن لندع الأن مثل هذه الخباثات!

ان الموصل هي عاصمة الجزيرة، أي ما بين النهرين القديمة، وتقع على ضفة دجلة الغربية في مدخل سهل واسع. لها خندق وسور محصن من جهة النهر. والمدينة كبيرة يبلغ محيطها نحو ستة اميال ايطالية. طرقها ضيقة كثيرة الحفر، يكثر الغبار فيها صيفاً والوحل شتاء البيوت منعزلة ولذلك يضيع الانسان في هذه المتاهة من الطرق والدروب.

ان التل الذي تقوم عليه الموصل هو من رخام هش[1]، ولهذا يستعمل كثيراً لحفر النقوش فوق الابواب ولنحت الاعمدة في داخل البيوت. اما الجدران الخارجية فهي مبنية باللبن. ولا تفتقر المدينة الى الخانات والاسواق والمساجد، لابل هناك جامع في وسط المدينة له مئذنة مائلة قليلاً شبيهة ببرج بيزا الذي هو اقدم منها، وترجع المنارة الى زمن الخلفاء، ويؤكد اهل الموصل ان النبي دخل الموصل فانحنت المنارة اجلالاً له.[2] يبلغ عدد سكان الموصل نحو خمسين الف نسمة وهم: ترك وعرب واكراد وكلدان ونساطرة ويهود. منهم من يرفع عدد السكان الى مئة الف نسمة لكني اشك في ذلك كثيراً. يتكلمون العربية والتركية والكردية والكلدانية، لكن اللغة السائدة في المدينة هي العربية.

التجارة في الموصل في تراجع، فالقماش الموصلي (الموسلين) Mousseiine المتميز الذي عرف بكل مكان باسمها لم يعد ينسج فيها بل يستورد

---

[1] – في الموصل نوعان من المرمر: اولهما المرمر الذي يميل لونه الى الزرقة ويعرف محلياً باسم الفرش وتكاد كل الاعمدة ومداخل الابواب والشبابيك ذكرها بلفظها واقواس الدواوين منحوتة منه: والنوع الاخر يميل لونه الى الاصفر ويعرف محلياً باسم الحلان ويستعمل كثيراً لتبليط الافنية .

[2] – انها منارة الجامع النوري او الجامع الكبير مفخرة مدينة الموصل. اقول : سمعت من اقرابي المسلمين في صغري هذه الرواية وكانوا يرددونها باعتزاز .

من الهند عن طريق البصرة، وتحمله القوافل الى حلب والى القسطنطينية: لكن يتم صبغه ونقشه في الموصل و لعل هذا العمل أي صبغ الاقمشة ونقشها هو العمل الرئيسي هنا. كما تنسج هنا ايضا اقمشة قطنية.

تستورد الموصل من حلب: الاقمشة والورق والزجاج والحديد والعقاقير: بينما تستورد من البصرة السكر والتوابل.

تجد القوافل هنا في الموصل خبزاً شديد البياض،خفيف الوزن وحلو المذاق لانهم يخلطون فيه الحبة السوداء pois والحبة الحلوة «المحالب»[1]

الدواجن كثيرة وجيدة ورخيصة الثمن. يكثر في الموصل الليمون citron ولذلك يصنعون منه شراباً يعوض عن النبيذ لان هذا الاخير لايتحمل درجات الحرارة العالية. والعرق هنا نادر الوجود ويجلب من العمادية ويحتفظ به صاحبه لنفسه.

العمادية

تقع العمادية على بعد ثلاث مراحل من الموصل في كردستان وتخضع لوالي بغداد،ويدير شؤونها امير كوردي سليل اسرة عريقة. انه بيت الاسماعيليين خلفاء بغداد، هذا البيت حافظ على قبور اجداده منذ سنة 700 الى يومنا هذا. هناك حصن كبير منحوت في الصخر من زمن فرناس pharnace وارتحشتا Artaxerxes.

هواء العمادية في الصيف سيء ولذلك يذهب البك الحاكم فيها فيخيم في بعض الجبال الغربية من مواضع الثلج.

يؤكدون لي ان هذا الجزء من ارض مادي medie هو جميل وخصب. وتجهز هذه المنطقة مدينة الموصل بالتبغ والاعناب والزبيب والخمور والفواكه والعسل والشمع ومَنّ السما الذي يجمع في ساعات الصباح الاولى ويكون قد سقط على اوراق اشجار البلوط ويسمى كزن كولي Ghiesen – ghievi. انه يسقط خلال مدة تمتد الى اربعين – خمسين يوماً في شهري آب وايلول. وهو كالندى

[1] – ذكرها بلفظها العربي mahaleb

المكثف ويجمع حتى من على الاحجار. انه المن الذي نزل في البرية[1].وبما انه يكون مخلوطا باشياء غريبة لذلك تجري عليه عملية تنقية، ويقدم للتحلية كالسكر والعسل،ولقد ذقته فوجدته طيب المذاق.

ان اهم منتوج في كردستان هو العفص،واشجاره متوسطة الحجم واوراقها بيضاء قطنية. ويأكل الاكراد البلوط وهو طويل واكبر حجماً من الثمر الذي الذي عندنا،وطريقة اكلهم للبلوط هو ان يوضع في النار او يسلق في الماء.

وبما ان كردستان هو بلد جبلي فهو لاينتج الحبوب بل يستوردها من الموصل : كالشعير والقطن والرز. واما الكستناء فتستورد من بتليس.

يذكر لنا تافرنييه بان العمادية هي بلدة كبيرة[2] فيها قيسارية كبيرة يباع فيها تبغ آشور والعفص، وتقع على قمة جبل عال يستغرق تسلقه ساعة في الاقل. وعلى طرف الطريق تتفجر من بين الصخور ثلاثة ينابيع او اربعة[3] يقصدها الاهالي من العمادية اذ لا ماء فيها. في وسط الساحة توجد دكاكين عامرة بانواع المواد.

باستطاعة «البك» حاكم العمادية ان يجمع ثمانية الى عشرة آلاف فارس وعدداً كبيراً من المقاتلين المشاة. وفي ارضه عدد من السكان اكثر من أي بك كردي آخر. ان سكان تلك الجبال يلبسون قمصاناً لها ازرار شبيهة بما عندنا. تعيش في تلك الجبال: الدببة Ours والذئاب loups والنمور tigrc والفهود panthere والظباء Chamois والثعالب Renards وبنات آوى Chacals والنموس Touines وf الارانب Iicvre. اما في الاماكن الصحراوية فهناك النعام Autruchc لابل الاسود ايضاً. والصيد متوفر ايضاً في تلك المناطق خاصة السمان cailles والحجل perdrix والدجاج البري Gclinotes والدراج francolin وهناك انواع من الطيور التي تعيش قرب المياه.

---

[1] - الكتاب المقدس : سفر الخروج 16 : 4

[2] - العراق في القرن السابع عشر : ص 117

[3] - اظنة يشير الى شلالات السولاف الجميلة .

ان الانسان المهتم بعلم النبات يلقي هنا كنوزاً سواء اكان في السهل ام في الجبال. لقد اخبرني الأب كارزوني Garzoni[1] واكد لي بانه وجد نباتات عديدة غير معروفة ومعظمها من الاشجار العطرة ومنها Cantarides[2] لكن مواقعها موحشة ومسالكها غير مطروقة، ولذلك لم يستمر الأب المذكور بالبحث عنها.

يظنون ان الموصل القديمة هي في موقع نينوى، لكني اعتقدانها كانت في المكان الذي يطلق عليه «موصل العتيقة»[3] وهي على بضع مراحل من هنا.

[1] – قدم الاب كارزوني الايطالي الى الموصل سنة 1762 وبقي الى سنة 1781 ثم رحل ، وعاد اليها من جديد ورجع الى بلده سنة 1790 ، ولانه خدم في العمادية لذلك كان خبيراً بطبيعتها كما يؤكد السائح .

[2] – لم اجد لها معنى بالعربية في القواميس المتيسرة .

[3] – اظنه يشير الى الموقع المسمى اسكي موصل .

الفصل الحادي عشر

السفر من الموصل والوصول الى بغداد

وصلت جياد الوالي مع سائسيها ليأخذونا ويذهبوا بنا الى الكلك، كما رافقنا الاخوة المرسلون بعد ان نفحهم السيد سليفان بهبة مناسبة عربون شكر لهم.

وجاءنا من طرف الموالي احد الجوخدارية ليرافقنا فيمهد الطريق لنا، والاهم لكي ينال في آخر المطاف المكافأة.

رافقنا كلك صغير فيه خمسة عشر رجلاً من حملة البنادق، وهم وان كانوا مرسلين من قبل الوالي لكن ليس على حسابه بل على حسابنا، وعلينا ان نقوم باودهم.

وعندما صعدنا الى كلكنا، وضع السيد سليفان حسب العادة على كتفي الرجل الذي اعد الكلك بنش benisce اي ثوباً هدية له.

الاكلاك

ان الاكلاك هي نوع من الرمث الطويل مربع الشكل، له عارضتان متينتان، وقد ربطت الى هاتين العارضتين اغصان شجر الصفصاف بمسافات متباعدة ثم شدها الى العارضتين، كما تشد اليهما والى القطع العليا ظروف منفوخة بالهواء هي جلود الماعز، وهذه الظروف تكاد تكون متلاصقة الواحدة بالاخرى لانها هي التي تحمل الكلك. وكان كلكنا مكوناً من مائتي قربة وبذلك فهو قادر على حمل اربعة الاف ليبرة livres وبامكان القوم ان يعدوا كلكاً من ثلثمائة قربة فيحمل مزيداً من الاحمال[1]. ويدفع من كل زق قرشاً. ولما كان الماء يلامس الظروف المنفوخة ويمر حولها، فانهم يضعون بينها حزماً من اغصان عرق السوس لكي يقلل من الرطوبة

[1] - سليم طه التكريتي: الكلك كيف يصنع ويستخدم للنقل، مجلة التراث الشعبي، العددان 11-12 (1971) ص 83

ولتسهيل الوصول الى القرب عندما يشرب الهواء منها فينزل الكلاك ويعيد نفخها. ولم يكن كلكنا يحمل بضائع لكننا اوصينا على اعداد كوخ صغير من الاغصان عليه مع ارضية من الواح الخشب.

يمخر الكلك في النهر بواسطة مجذافين موضوعين في الوسط او عند الجانبين؛ وينحدر الكلك بقوة تيار الماء، ويكفي رجلان لقيادته.

لم تكن المياه عالية جداً، ولا منخفضة كثيراً. والسيرفي النهر اسلس واسرع عندما تكون المياه عالية، وهذا لايحدث الا في الشتاء عندما تهطل الامطار بغزارة في الجبال وفي اطراف ارضروم فيكبر حجم النهر، وفي تلك الحالة يستغرق السفر الى بغداد ثلاثة ايام.

هناك جزر عديدةَ في نهر دجلة. كما ان مجراه كثير الالتواء. فبعد بساتين الوالي تجد النهر تارة مستوياً عالياً وهادراً. وكنا نشم من وقت الى آخر رائحة الكبريت والنفط والزفت.

حمام العليل

بعد ست ساعات وصلنا الى موضع اسمه «حمام علي» Hmam-Ali. وعلى الشاطى الغربي هناك جبل دائري تخرج منه عيون كبريتية، فيذهب الناس الذين يشكون من امراض جلدية ليستحموا هناك. وفي تلك الايام كان موسم الاستحمام السنوي[1].

كان اخ محمد باشا، وشقيق الياس الصراف هناك في حمام علي فقدما لرؤيتنا، ورغم رغبتنا انذاك للنوم واخذ قسطا من الراحة، لكننا لبينا دعوتهم فشربنا ماء الورد الذي حملوه الينا[2].

عند مغادرة الموصل لابد للمسافرين حمل ضروريات السفر كلها، ومنها: التبغ والآت التدخين أي السبلات من اجل توزيعها على الاعراب المخيمين على

---

[1] – فرقد علي الجميل: اصطياف الموصليين في حمام العليل ، مجلة التراث الشعبي 4 (1973) ص 45 – 58

[2] – انه شراب الحرير وهو ماء الورد المحلي بالسكر والملون بالصبغ الاحمر .

طول النهر والذين يأتون سباحة الى الكلك ليزوروا المسافرين المــارين. والواحــد منهم يسبح محتضنناً قربة منفوخة تساعده علــى الــسباحة. ويحزمــون البــستهم واسلحتهم ويجعلونها صرة يضعونها فوق رؤوسهم. ورأيت بعضهم يحملون حمــلاً ثقيلاً نوعا ما. منهم من يضع الزق بين فخذيه او في احدى يديــه ويــسبح باليــد الاخرى ويكون الكتفان خارج الماء.

يقترب هولاء العرب من الكلك، ولا يزعجون الركاب عادة، يكتفون بقليل من التبغ ويعودون شاكرين رغم انهم يكونون قد سبحوا لمدة ساعة احياناً. هولاء الناس سمر البشرة وكأن الشمس قد احرقتهم. لهم لحي طويلة، ويغطــي ابــدانهم شــعر كثيف. يأتون سباحة بجوقات من ثلاثين او اربعين رجلاً ويقتربون من الكلك فنضع على راس كل واحد منهم كمية صغيرة من التبغ.

راينا في حمام علي كلكاً يعود الى تاجر ارمني، فكنا نمخر النهر متقــاربين الى نحو الساعة الرابعة عندما اجبرنا الريح على اللجوء الى الشاطيء.

ان اصطدام هذه المواخر النهرية قد يكون احياناً خطراً جــداً عنــدما تــشتد الرياح فينقلب الكلك او يتوجه بقوة الى احد الشاطئين، فان كان المكــان صــخرياً عندئذ يهلك الكلك بمن عليه. اما اذا كان الشاطيء رملياً فلا خوف عليه.

وكان رجال كلكنا مترددين من جهة السير ليلاً بحجة وجود مواقــع خطــرة على ما كانوا يدعون. والحقيقة انهم كانوا يريدون ان يناموا، وكان علينا ان نستعين بعدد اكبر من الكلاكين لكي يتناوبوا العمل فنسير ليلاً ونهاراً.

كانت الحرارة في النهر اقل مما كانت عليه في الموصل، وكنا نــستطيع ان نجلس على حافة الكلك ونمد سيقاننا في الماء. اما ضفاف النهــر فكانــت مغطــاة بحجارة بيضاء اللون مخلوطة بالملح والنترات.

انطلقنا في الصباح الباكر تاركين الى يميننا الموقع المسمى « طوب قلعــة» أي قلعة المدفع والى يسارنا مصب نهر الزاب، وهو نهر ليكــوس Lycus عنــد بطليموس، وهذا النهر ينبع من جبال غورديان. وعند بزوغ الشمس مررنــا امــام «طوبراق قلعة» أي قلعة الارض، وهو مرتفع ترابي يقع قرب الشاطيء كانت تقوم

عليه قلعة صغيرة. ان هذه التلال هي من صنع الانسان على قــول بلينـــي[1] pline وقد جعلت كواسطة للتخندق. وهي كثيرة على مجرى النهر.

كان الباشا في الموصل اي واليها قد زود الحرس الذين ارسلهم معنا بالطعام لكنهم كانوا يفضلون الطعام الخاص بنا. وعند وصولنا الى هذا المكان طلبوا العودة الى الموصل فقد انتهت مهمتهم، فقدم لهم السيد سليفان خمسة « ســـكين»[2]، فـــدس الجوخدار في جيبه «سكيناً» واحداً. وقد عادوا عن طريق البر تاركين كلكهم معنا.

ارتفعت الرياح من جديد وهبت بعكس سيرنا، فاضطررنا للتوقف عند كانوكا canuga في الموقع الذي يمر فيه النهر في مضيق عميق بين الجبال. وعدنا الـــى السير بعد الظهر فمررنا امام جسر الذهب وهو نقطة كمركية حيث يـــدفع ســـكين واحدا كرسم عبور. ويقع هذا الجسر عند مصب الزاب الصغير وهـــو المـــدعو« زرببس» عند بليني: او هو « كاربوس» carpus عند بطليمـــوس، ويعـــيش فـــي ارجائه الكراميون Garameens ويقال ان هذا الجسر هو من عمـــل الاســـكندر. ويقيم هناك رئيس كردي يستوفي الضريبة من القوافل.

واكملنا السير الى اول الليل لكن الرياح اجبرتنا على التوقف لنتحاش الارتطام بمواقع رملية كانت الرياح تدفعنا اليها. وفي اليوم التالي عبرنا جبل حمرين وهـــذه جبال عارية وقاحلة، يمر نهر دجلة فيها. من سلسلة جبال طويلة تبدا من ســـنجار وتلتقي بجبال كردستان وتمتد جنوباً الى الخليج العربي. ويقطع هذه السلسلة نهـــر الفرات ايضاً، وكذلك نهر ديالى، وتستمر في الجزيرة العمرية ثم في بادية بغـــداد وفي منطقة واسط، ومن صحراء الى اخرى حتى تتلاشى لتغيب في آخر الامر في الخليج.

---

[1] - بليني الاكبر له كتاب التاريخ الطبيعي ويقع في 37 كتاباً . مات مختنقاً بالسموم التي ابنثقت على اثر انفجار بركات فيزون سنة 79 م .

[2] - سكين seguin وبالايطالية zecchino نقد من الذهب اختلفت قيمته من بلد الـــى آخـــر ، واصل اللفظة عربي تعميق لكلمة " سكة " . العزاوي : تاريخ النقود العراقية ، ص 132

تكريت

كنا نشتم دائماً رائحة قوية هي رائحة القير والكبريت على طول الطريـــق. وكان الماء عكراً جداً. وعند الظهر وصلنا الى تكريت التي يعتقــد انهـــا ســـلوقية القديمة، ولكنني لست من هذا الرأي واظن ان سلوقية كانت في الموضع الذي تقـــوم عليه اليوم مدينة بغداد.

هنا نحن في منتصف الطريق بين الموصل وبغداد، وهنا يتم تبديل الكلاكين، ولقد طلبنا اربعة رجال عوض اثنتين لنستطيع ان نسير حتى في الليل.

ضفة النهر مرتفعة والمدينة عالية. يحكم تكريت متسلم يخضع لباشا الموصل. سكانها مسلمون ويعاقبة[1] ليس فيها ما هو جدير بالملاحظة غير قلعتها الـــصغيرة. بيوتها مشيدة باللبن والطين، وتعتبر هذه المدينة اول بلدة في العراق العربي. قـــام احد قادة الخليفة المتوكل[2] بحفر قناة من دجلة لتسقي الاراضي المجاورة ودعيـــت هذه القناة « الاسحاقي». يظهر هنا مجرى النهر اكثر استقامة وعرضاً. تشاهد على ضفتيه قبور شيوخ العرب الذين ماتوا اثناء مرورهم في هذه الارجاء؛ وكذلك آلات لرفع الماء من النهر وسقي الاراضي المزروعة بالخيار والبطيخ الذي يحمل الـــى اسواق بغداد.

وبعد مسافة اخرى رأينا ابنية متهدمة يطلق عليها اسم بغداد القديمة، وقيل ان الخلفاء العباسيين اتخذوها مكاناً للسكنى[3].

كان في النهر عدد من الجزر، وكان للنهر تعرجات عديدة. نـــزل الكلاكـــون الى البر وعادوا بعد قليل حاملين زقاً مليئاً بعنب لذيذ.

رأينا حطام بعض اعمدة جسر قديم على دجلة، وعندما ترتفـــع ميـــاه النهـــر فتغطيها يصبح المرور هناك خطراً على الاكلاك. ويتكلم تافرنييه عن شلال قـــوي في ذلك المكان بحيث يجبر المسافرين الى افراغ الكلك من الاحمال والسير نحـــو

---

[1] – لعل صاحبنا هو آخر من نوه بالوجود المسيحي في تكريت .

[2] – الخليفة المتوكل (232 – 247 – هـ = 847 – 861 م)

[3] – يتكلم السائح عن سامراء دون ذكر اسمها .

ثلاثة اميال راكبين الثيران او الخيل ثم يعودون الى الكلك[1] نحن لم نـشاهد ذلـك، ولعل موجات المياه رفعت كمية كبيرة من الرمال التي كانت تعيق الملاحة.

كان شاطيء النهر هنا بهيجاً، اخضر اللون بسبب نبت الدخن المزروع هناك بكثافة، وبدأنا نرى النخيل، واصبح النهر هنا عريقاً ومهيباً. وعند منتـصف الليـل وصلنا الى بغداد فانتظرنا مطلع النهار لكي ننزل الى البر.

الحيوانات

لقد راينا خلال رحلتنا كلها حماماً معششاً علـى الـشاطي، ورأينـا قبـرات Alouetes، ودجـاج الارض Becassine والبجـع Pelicans، واللقـالق Cigognes والعصفور الدوري بكثرة. وكانت الخنازير البرية تزعجنا، لكننـا لـم نشاهد اسوداً رغم انها ليست نادرة.

اما الحيوانات الداجنة فهي: الخيول والحمير صغيرة الحجـم لكنهـا قويـة، والماعز والاغنام والجاموس بكثرة والجمال والثيران، فهذه هـي ثـروة العـرب المخيمين على ضفاف دجلة وهي تستطيع عبور النهر من ضفة الى اخرى.

بغداد

للشركة الانكليزية في الهند عميل في بغداد يخضع لمقيمية البـصرة. وكـان السيد سليفان قد اخبره مسبقاً بقرب وصولنا الى بغداد، فجاء رجل واستقبلنا وانزلنا في داره والموظف في بغداد ارمني يدعى خواجه مركار Marcar واذ كـان فـي ذلك الوقت في البصرة فان وكيله في بغداد السيد مانوك Manuk خرج لاستقبالنا، وهو رجل – مع الأسف – خشن الطباع وفظ!

هنا تدفع ضريبة الكمرك، واذ لم تكن معنا بضائع، فقد انزلنا اغراضنا سريعاً دون ان نؤدي شيئاً وذلك بامر الباشا، لكننا دفعنا بالطبع بخشيشاً للحراس.

انه ممنوع على كل الاكلاك الاستمرار في النهر والنزول الى ما بعد بغـداد، لكنهم يقوضون من الاكلاك ويبيعون الاخشاب بسعر جيد اعلى من سعر شرائه في

---

[1] – العراق في القرن السابع عشر، ص 71 .

الموصل، ويستفيد من فرق السعر الكلاكون، رغم ان الكلك اعـد علـى حـساب المسافرين.

ارسل السيد سليفان كتاب التوصية الى الوالي بواسطة السيد مانوك. وفي هذه الايام وافانا عدد كبير من شخصيات المدينة ومن الاوربيين لزيارتنا. ومن جملـة هولاء: تاجر اصله من البندقية كان يسكن في بغداد ويتعـاطى التجـارة بالمـاس واللؤلو. وطبيب فرنسي متزوج من شابة كلدانية وكان يهتم بالتجـارة اكثـر مـن اهتمامه بالطب. كما جاء لزيارتنا آباء المبعث الكرملي: الاب فو لجنس واصله من كولونيا، والاب فرديناند واصله من مالين، والاب كليمان واصله من بوهيميا وهذا رحل الى بلاد فارس[1] كما زارنا عدد كبير من الارمن لالشيء الامن باب الفضول.

كان مانوك قد تسلم رسائلنا قبل سبعة ايام او ثمانية، وعلى حـد قولـه انـه لانقدر ان نسافر قبل مضي خمسة عشر يوماً اذ لايوجد في بغداد اكثر من سفينتين: قدمت الاولى من البصرة لكنها لم تمكن افراغ حمولتها بعد؛ اما السفينة الثانية فهي في حالة بناء. وقد تم تخصيص الفينقيين لنقل الجنود الى البصرة. لكن الباشا تفضل فاخلى مكاناً لنا وللحراس المرافقين لنا لان وجودهم معنا ضروري لاجـل امننـا وحمايتنا من اذى الاعراب المخيمين على ضفتي النهر.

ان التأخر في بغداد مدة خمسة عشر يوماً الحق بنا ضرراً كبيراً، اضافة الى ذلك ان مانوك طلب الف وثلاثمائة قرشا زيادة، وقال ان بعض الانكليزالذين قدموا من حلب قبل شهر ثم سافروا كانوا دفعوا اربعمائة سكين أي ما يساوي الف ومائتي نحونا. ولم اقتنع بقوله، وفي ظني ان نصف هذا المبلغ سوف يذهب الـى الـسمار وربعه الى خزينة الوالي، والربع الاخير – فقط – لقبطان السفينة.

---

[1] - الاب فولجنس : ولد سنة 1744 ، تراس الرسالة 1780 – 1791 ، نائب رسولي 1794 – 1801 توفي في البصرة سنة 1803 ؛ فرديناند : ولد سنة 1739 في الرسالة 1773 – 1771 ، ولم اجد ذكراً للاب كليمان في المراجع المتيسرة لدي .

حادثة سرقة

في صباح اليوم التالي جرى لي حادث خاص بي: فما ان بزغت الشمس حتى طردتنا من افرشتنا التي على السطح، فنهضت واردت ان امتع نظري برؤية المسكوكات التي اقتنيتها في الطريق فكانت كلها موجودة. ثم ذهبت الى الحمام، وعند عودتي اردت ان اعرض مجموعتي على الأباء فاذا بها ناقصة ثلاثين قطعة فصرخت باعلى صوتي واتهمت خدم البيت، لاني لم اشك بخدمي الذين جربت امانتهم سابقاً. فلم احصل على شيء. ولكن بعد الغداء عثروا عليها في احدى زوايا البيت، ويظهر ان اللص خاف ان يكتشف امره فرماها هناك. لكنها مع ذلك كانت ناقصة.

زيارة الوالي

ان الهدية التي كان يجب علي ان اقدمها الى الوالي صارت مادة جدال طويل، فصاحبنا مانوك الخبير بإناث الشرقيين، ولا اريد القول بالشذوذ الجنسي، بل بالاحرى بالجشع، لانه كان يريد ان يحصل بدوره على حصة.

في اليوم الثالث من وصولنا ارسل الوالي[1] حسب العادة – من يرحب بنا باسمه، وعين اليوم التالي للمقابلة العامة. ولقد افتهمنا من الموفدين بان الوالي الذي هو مدين بوظيفته الى الانكليز قرر ارسال حصان اصيل الى السيد سليفان وان يقدم له فروة من جلد السمور[2] : فقدر السيد مانوك قيمة هذه الهدية بما يساوي اربعة اكياس في الاقل، وأردف مانوك مذكراً بان المثل التركي يقول: لاتقترب من العظماء. ولم يكن مع السيد سليفان شيئاً نادراً الاساعة ذهب مطلية بالميناء وعليه ذهب تقدر بثمانين جنيهاً. لكن خبيرنا مانوك رأى ذلك قليلاً فهو والحالة هذه معيباً

---

[1] – سليمان باشا الكبير (1194 – 1217 هـ = 1780 – 1802 م) من اشهر ولاة بغداد في العهد العثماني . انظر العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين

6: 86 – 149 : لونكريك : اربعة قرون 000 ترجمة جعفر خياط ، بغداد 1968 ، ط 4 : ص 225 وما بعدها .

[2] – ذكرها بلفظها العربي ، وهو حيوان بري لونه احمر مائل الى السواد تتخذ من جلده فراء ثمينة (المنجد) .

بكرامة انكلترا. كان وقت المقابلة قد تم تعينه في الساعة الثامنة. لذلك فمنذ الساعة السابعة كان القبوجي باشي[1] قد وصل ممطياً حصانه سائراً باحتفال كبير ومعه الحصان الأخر الذي سيركبه السيد سليفان. وظن مانوك انه سيصحبه وحده ويلعب دور المترجم معتقداً باني اجهل عادات الشرق وكان من الضروري جداً ان يكون اتباع السيد سليفان راكبين الجياد ايضاً، فألحت على مانوك لكي يجد لنا خيلاً، وكان المفروض ان تكون الجياد كلها مرسلة من اسطبل الوالي.

بدأنا المسيرة حسب النظام التالي:

سار في المقدمة موظف الوالي يتبعه السيد سليفان يتقدمه خدمه، ومن ثم سرت انا، وسار بعدي المترجم وفي الآخر السيد مانوك. وعندما وصلنا الى باب السراي نزلنا من على ظهور الخيل ونزعنا جزمنا فلبسنا اخفافاً(في النص: بوابيج) ودخلنا حوش السراي. وكان الحرس قد اتخذ موقف تحية السلام الرسمي ثم عزفت الموسيقى. وعند وصولنا الى السلم وقف لاستقبالنا «سلام اغاسي»[2] ثم قادنا الى الصالة وكان الوالي جالساً على زاوية الاريكة بالزي الرسمي فتململ قليلاً في مكانه عند دخولنا وكأنه يريد ان ينهض، لكنه لم يترك مكانه، فجلس السيد سليفان قرب الاريكة على كرسي كنا حملناها معنا، ووقفت الى يمينه، ووقف المترجم الى يساره، واما مانوك فقد وقف على جهة.

كانت حاشية الباشا كلها قد ملأت ارجاء القاعة. فبعد المجاملات الاولى قدموا «الداطلي» أي الحلويات أعقبتها القهوة ثم الشربت وماء الورد Gkiulap ثم البخور Buhur.

وهذا النظام يجري عادة عندما يستقبل الوزير السفراء الاوربيين.

رأيت الباشا جميل الصورة، يتمتع بمظهر ظريف مرح وعقل ذكي وانه رجل مقدام حقاً كان عبداً في بلاد فارس ثم صار باشا في البصرة وهناك حظي بحماية الانكليز اذ كان مخلصاً لهم، هكذا صعد ليتسنم اكبر باشوية في الدولة العثمانية أي ولاية بغداد. فاصبح خليق – آغا ثم وزيراً أكبر، وباشا من حملة الاطواغ الثلاثة،

---

[1] – القبوجي باشي (= تركية) تعني رئيس البوابين وهذا من اسماء موظفي ذلك العهد .

[2] – سلام اغاسي (= عربية – تركية) رئيس كتيبة التحية .

واسمه سليمان وهو يمسك العرب بيد قوية، وعرف حتى الآن كيف يمنع نشوب الثورات التي كانت كثيرة الحدوث سابقاً.

وبعد كل هذه المراسيم تم تقليد السيد سليفان بالفروة المصنوعة من جلد السمور وكانت مخيطة من خارجها بقماش ذهبي اللون. اما فروتي فكانت من جلد القاقم Hermine واما المترجم والسيد مانوك فقد خلع عليهما فروة من Marte[1] وبعد اتمام تلك المراسيم حان وقت الانصراف، ولذلك انسحبنا فامتطى السيد سليفان حصانه وكذلك رجال بطانته وعدنا الى بيتنا بالنظام نفسه الذي تبعناه في الذهاب.

ان الهدايا المقدمة من السيد سليفان اكانت الفروات او الاقمشة او الفضة الى مرافقيه في الذهاب والاياب وفي قاعة المقابلة بلغت قيمتها نحو مئتي قرش.

بقي الحديث يدور حول الهدية التي تعبر عن الشكر والامتنان. فالسيد مانوك الذي كان يعد نفسه ليحصل على فائدة رفض ان يحمل الساعة المطلية بالميناء والعلبة الذهبية واعتبرهما هدية غير لائقة للطرفين أي الهادي والمهدي اليه؛ لابل صرح – مانوك – بانه لو علم الباشا بانه سيتسلم مثل هذه الهدايا لما خصص لنا كل ذلك التكريم. فانتهى السيد سليفان الى القرار التالي: انه لن يرسل الآن اية هدية الى الباشا وسيحاول ان يجد له هدية لائقة في البصرة فيبعثها اليه.

الرحيل : اخبار متفرقة

سرنا الى المركب الصغير وحجزنا مؤخرته وكان هناك غرفة صغيرة. وكلفتنا ستمئة قرش. ينظرهنا الى الانكليز على انهم اغنياء جداً، كما ان الطمع قد غلب على وكلائهم فجعلوهم يدفعون التكاليف بثقل الذهب. لقد تشكى من هذه الحالة كثيراً السيد ايفز yves الذي مر هنا سنة 1759 واستاء من هكذا معاملة[2].

يعتقد كثيرون ان بغداد هي بابل القديمة، لكن تلك تقع على نهر الفرات وتبعد من هنا مسيرة اربعة ايام. قد يكون ان اهالي بابل التجاؤا اليها بعد خرابها، لكنني

---

[1] – وردت ترجمة هذه الكلمة في قاموس " المنهل " بكلمة السمور واظنه السنار وكان هذا الحيوان موجوداً في جبال العراق .

[2] – الدكتور الجراح ايفز : رحلة من ايران الى انكلترا ، طبع في لندن 1773

اظن بانها سلوقية القائمة عند دجلة التي ذكرها بطليموس. ومهما يكن من امر فان بغداد كانت اولاً مثوى الخلفاء العباسيين، وهي اليوم عاصمة العراق العربـــي. ان طول هذه الولاية المحدودة بالجزيرة نحو مائة وخمسة وعشرين فرسخاً اعتبـــاراً من تكريت الى عبادات التي هي اكبتانا القديمة.

يشاهد في ذي الكفل kiefel – ziI ضريح (النبي) حزقيال[1] والامـــام علـــي قرب الكوفة[2] وكذلك آدم وحواء، فالمسلمون يعتقدون ذلك ويقومـــون بـــالحج الـــى هناك. تقع ولاية بغداد بين حدود صحراء النجـــف والباديـــة الـــسورية، ومنطقـــة الموصل. وتقسم الى اقسام عديدة.

اسس بغداد ابو جعفر المنصور، وهو الخليفة الثاني (من الخلفاء العباســـيين) وذلك في سنة 140 هجرية[3]. وسادها العرب ثم اخذها الفرس مـــن العـــرب ســـنة 1638 م؛ فجاء السلطان مراد الرابع من تركيا الاوربية فاستردها.

وتقع المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة. يبلغ طولها نحو ميل ونـــصف، ويصل محيطها الى نحو خمسة اميال. يحيط بها من جهة البر سور مشيد بـــالآجر؛ ويقع سراي الباشا جهة النهر. ويكون سراي الباشا وجدران البيوت المجـــاورة مـــا يشبه النطاق للمدينة.

هناك من جهة البر ابراج وخندق قد يملأ بالماء من دجلـــة عنـــد الحاجـــة. وللمدينة ابواب عديدة أكان باتجاه الريف ام عند النهر، وكلها تغلق ليلاً.

البيوت قريبة الشبه ببيوت الموصل، وهي متفرقة، ابوابها مربعة ومنخفـــضة ولذا يجب الانحناء من اجل دخولها. اما بيوت الناس الاغنياء فهي واسعة. ويـــؤدي الباب الصغير الى فناء واسع مربع الشكل، فيه جنينة صغيرة تقوم حولهـــا غـــرف الدار وهي اما مطينة او مجصصة. ينام القوم فوق سطح الدار من بدء شهر تموز الى تشرين الاول. وتوجد في هذه البيوت سراديب معقودة ينزلون اليها في الصيف. والبناء عادة مشيد بطابوق لم يفخر جيداً، والتبييض غير متقن. وفي وســـط هـــذه

---

[1] – معجم البلدان 2 = 153 في كلامه عن " برملاحة "

[2] – ان مرقد الامام علي بن ابي طالب هو في النجف الاشرف .

[3] – ابو جعفر المنصور (145 – 158 هـ = 762 – 775 م)

الصالات التحتانية (أي السراديب) توجد مجاري هواء تمتد الى السطوح وتزود الداخل بهواء منعش.[1]

المدينة ليست جميلة، والطرق ملتوية كثيرة الوحل او الغبار. البسمستين Besestein[2] في حالة افضل فهي كبيرة وتكاد تشبه البلدة وتباع فيها مختلف انواع البضائع.

ان الجوامع والخانات والحمامات ليست قليلة في بغداد. والجدير بالذكر ان ارضية حمامات بغداد ليست مبلطة بل مطلية بالقير. ومن خانات بغداد. والجدير بالذكر «خان الاورطمة» (أي المغطى) وله عقادة كبيرة، واقواس كثيرة، وهو من بناء الفرس[3]. من يجلس فيه بالصيف يشعر بالراحة بينما تكون الحرارة عالية جداً في الخارج، وقد يصعد مؤشر مقياس الحرارة الى تسعين درجة[4].

اما نحن فكان سكننا في الخان ردئياً جداً، فالذباب كثير والبعوض اكثر ولهذا السبب فانك تجد في كل مسكوكات كوماجين[5] صورة عقرب كبير

اما في بيت الأباء الكرمليين فهو مريح جداً واني انصح المسافرين ان يختاروا السكنى في هذا الدير على أي منزل آخر.

يسكن بغداد الاتراك والعرب والارمن والكلدان والسريان واليعاقبة وعدد قليل من اليونانيين (اظنه يريد الاروام). ولليهود يد طولى في حقل التجارة سواء أكان مع حلب أم مع البصرة، فالتجارة بين ايديهم.

وقد يجد المسافرون الاوربيون هنا من يتكلم الايطالية والفرنسية والبرتغالية وحتى الانكليزية. منذ زمن الطاعون الذي انتشر هنا سنة 1773 لم يبق على قيد الحياة من سكان بغداد غير خمسة وعشرين الف نسمة، فقد اهلك ذلك المرض

---

[1] – يتكلم عن البادكير وهي لفظة فارسية عربها الاقدمون بلفظة بادهنج .

[2] – لم افهم ماذا يريد السائح بهذه الكلمة.

[3] – خان الاورطمة او الاورتمة أي الخان المغطى على قول السائح شيد سنة 760 هـ (1358م).

[4] – أي بالحساب الفهر نهايت

[5] ـ منطقة الى الشمال الشرقي من سوريا قرب كبادوكية مركزها ساموسات .

الوبيل ثلثي السكان، ولذا فان احياء عديدة لاتزال الى اليوم مهجورة[1] وقد مات في ذلك الطاعون مطران بابل السيد بابيه[2] Beuillet واصله من بيزانسون Besancon ودفن في الكنيسة ولا يوجد على قبره نصب، وقد كان خبيراً بالمسكوكات ورغم خبرته فان احد الايرانيين قدر ان يغشه مراراً فضرب له اندر المسكوكات لابل كل المسكوكات التي كان يتمنى الحصول عليها.

اما الاسقف الجديد واسمه ميريدو Mer idot فهو لا يزال في باريس وانصحه ان يبقى هناك[3].

المرسلون الى الشرق

جاء الآباء الكرمليون الى بغداد ليحلوا محل الآباء الكبوشيين الذين تحولت كنيتهم الى جامع[4] ويتمتع الكرمليون بحماية فرنسا التي تعين المطران. والمعروف ان احدى السيدات الفرنسيات اسست هذا المبعث[5]. اما الكبوشيون فقد تخلوا عن كل الرسالات التي كانت منتشرة في ارجاء آسيا لان عادات وقوانين الاخوة المتسولين

---

[1] – ذكر هذه المعلومة الاستاذ جعفر خياط : صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة 1971 ، ص 119 .

[2] – السيد بابيه Baillet مطران بابل خدم مدة طويلة في العراق وله تقرير عن العراق نشرة باللاتينية سنة 1754 وقد نشرناه بالعربية في مجلة بين النهرين (1983) العدد 43 ، ص 225 – 238 .

[3] – السيد ميريدو miroudot عين سنة 1781 ولم يلتحق بمركزه الجديد . انظر : فيلوني : تاريخ القصادة الرسولية ، ص 52

[4] – كان الوالي محمد باشا الخاصكي (1067– 1069 هـ = 1656– 1658 م) استملك بعض كنائس النصارى المجاورة لمساجد المسلمين ... السيخ محمد الازهري عليه الرحمة واتخذ منها مسجداً ومعبداً لاهل الهداية وشيد عليه قبة كلشن خلفا: 255 ؛ رحلة سبستياني في الى العراق ، بغداد 2004 ، ص 67– 68

[5] – انها السيدة ريكوار التي قدمت مبلغاً معتبراً سنة 1637 من اجل اقامة مطرانية في الشرق فتقرر تخصيصه لاقامة مطرانية لاتينية في بغداد. انظر: فيلوني : تاريخ القصادة الرسولية . ص 23

لاتنسجم مع التقاليد الاسيوية المحلية. اما الكرمليون فقد تأقلموا مع عـادات البلـد وتركوا زيهم الرهباني واهملوا عادة التسول، واهتموا بتقديم انفسهم في هذا المجتمع كاطباء اكثر من رهبان.

ان المسلمين متسامحون ويتخوفون من «التفاحة الوردية» ويريدون بها روما. التي تبعث بمرسليها الى مختلف الجهات، ولذا تجدهم يلحقون بالمرسـلين بعـض المضايقات من وقت الى آخر فيشيددون عليهم؛ لكن هذه ليست سوى احداث عابرة.

ان معظم المرسلين الذين يغادرون اوربا بالكاد يعرفون موقع المكـان الـذي يذهبون للعمل فيه، وعندما يسافرون فانهم قد لايصلون الى غايتهم او اذا وصـلوا يتمنون العودة الى اوطانهم لكن لخلوهم من المال يبقون فيتعودون على البلد شاؤا ام ابوا. فبعضهم يتعاطى الطب والبعض الآخر يختلطون بالاسر الكاثوليكيـة خاصـة اسر التجار الاغنياء. وان لم تعد روما تلتفت اليهم، فهم بدورهم لايلتفتون اليها.

يرتدي سكان بغداد الاغنياء البسة مخيطة من الاقمشة الهندية او من الشالات المصنوعة في انقرة Angora؛ اما عامة الشعب فيرتدون رث الثياب ويتمنطقـون بحزام من جلد. وتحمل النساء حلقات في مناخيرهن[1] ، كما ترى علـى اذرعهـن رسوم مختلفة[2] وغطاء رأس النساء اليهوديات هو عبارة عن قلنسوة عالية، وهـن بذلك يختلفن عن النساء الكلدانيات[3].

تعيش النساء في حياة منعزلة، ولا يسمحن للاوربيين برؤيتهن. ولا يحظـى بذلك إلا الشيخ بالنسبة الى المسلمات او الرهبان الذين يزورون الاسر الكاثوليكيـة

---

[1] – انها الخزامة . انظر : عزيز جاسم الحجية : بغداديات 2 : 27

[2] – انه الدك الو الوشم . المرجع نفسه 2 : 18 – 20

[3] – كانت نساء بغداد النصرانيات – على قول الاب انستاس ماري الكرملي (ت 1947) يلبسن الفينة ويكون ظاهرها مغشى بالقصب وتثبت هذه الفينة على الرأس بلفافة من شال قشمير . مجلة لغة العرب ، (1913) العدد 7

فينظرون النساء من دون حجاب؛ فعادات نساء بغداد اليوم لم تعد كعادات – البنات – البابليات التي يروي لنا كونتيس كورسيوس[1] بعض قصصهن الجميلة.

لا توجد ينابيع في بغداد ولا ثلج لان الجبال بعيدة عنها. وترى الناس في الدروب حاملين الماء بعضهم على ظهر حمار والبعض الآخر على الاكتاف وهو في كل الاحوال ماء دجلة، وترى ايضاً بعض الصبيان يبيعون الماء للمارين كما يبيعون مواد التدخين فهم يحملون علبة معلقة برقبتهم تحتوي على ضروريات التدخين كالسبلات وتبغ والنار.

لبعض البيوت انابيب يسيل فيها الماء في بعض ايام الاسبوع من النهر، لكن عددها قليل.

الكرخ

اما الجهة الثانية من دجلة، أي القسم الواقع في ارض ما بين النهرين، فهناك ضاحية كبيرة عامرة بالبساتين وغابات النخيل. لكنها بصورة عامة قاحلة لاتريح النظر. ويتم عبور النهر الى تلك الضفة على جسر قوامه تسعة وعشرون قارباً، واذا ارتفعت المياه فعليهم في هذه الحالة زيادة عدد القوارب؛ وهذا الجسر يمكن فتحه لكي تمر الاكلاك في وسطه. وهناك عبارات (= قفة) باستطاعتها حمل عشرين نفراً وهي عبارة عن سلة مدورة مصنوعة من اعواد الصفصاف ومطلية بالقير.

الصناعات البغدادية

المصانع في بغداد قليلة لا يلتفت اليها. يصبغون هنا قماش الموسلين، وكذلك بعض المناديل من الحرير من انتاج محلي.

لكن الاهم ان بغداد هي ملتقى مختلف القوافل: منها القادمة من بلاد الفرس او من الهند التي تاتي عن طريق البصرة. وكذلك قوافل حلب ودمشق التي تعبر

---

[1] – مؤرخ لايتيني من ابناء المئة الاولى المسيحية له " تاريخ الاسكندر" كتبه باسلوب ادبي مشوق دون الاهتمام بالتاريخ .

الصحراء، واخرى قادمة من اصفهان وتفليس وتبريز وارضروم ويرفان ومن مدن اخرى عديدة.

العفص المنتج في كردستان ينقل الى البصرة ومنها الى الهند، وتصل انواع الشالات من بلاد فارس، ويأتي الزعفران والنحاس بكميات كبيرة من طوقان فيتم تصفيته في بغداد. واما القطنيات فتصل من دياربكر. واخيراً تاتي الشراشف والزجاج والورق والحديد من اوربا وخاصة من البندقية وتصل كلها عن طريق حلب. كما ان الهند تجهز البلد بالعقاقير والتوابل والكتان بنوعيه الراقي والعادي.

مناخ بغداد

يمكن ان يقال عن هواء بغداد بانه صحي. ولكن عندما يحل الصيف تكثر فيه الحميات. وترتفع درجة الحرارة تدريجياً لتصل الى ذروتها في حزيران وتموز وآب. وتهطل الامطار هنا بكثرة في شهر تشرين الثاني، والشتاء بارد وقد يصل الى الانجماد ولكن لايسقط الثلج في بغداد.

يحاول كل الناس ان يلقحوا من مرض حلب، فالحبة المعدية ليست نادرة هنا ويعزى انتشارها الى تناول التمر.

والي بغداد

يحكم بغداد باشا من حاملي الاطواغ الثلاثة وهو برتبة وزيراعظم او خليفة – آغا. ويديرها بسلطة مطلقة ويكاد ان يكون مستقلاً عن الباب العالي، وله جيش دائم الاستعداد للقتال قوامه عشرة الآف محارب.

اما واردات الوالي فتجمع من ضرائب الكمرك، ومن الرتب التي يبيعها للعرب، ومن ضرائب اخرى مختلفة. ويكسب كثيراً من بيع التمور فان استهلاك التمر هنا هائل، وبالرغم من كثرة انتاجه في بغداد فانهم يجلبون المزيد من البصرة.

القمح هنا كثير ورخيص، لكن الخبز سيء الصنع فالارغفة تخبز في التنور وتكون نصف ناضجة ويعطي الشعير للخيل. واما الاعراب فياكلون الماش.

ان اهوار واسط التي تتكون من فيضان دجلة. واهوار الكوفة مـن فيـضان الفرات تنتج كميات كبيرة من الرز. وفي وسط الاهوار تقوم قرى كثيـرة يـسكنها العرب. لايحفظ الخمر هنا في بغداد في الصيف، ولذلك يصنعون العرق من التمر، وهو شراب حسن وصحي في المناخ الحار لانه يريح الاعصاب.

خيرات البلد

البطيخ والرقي والباذنجان هنا كبير وحجمه مدهش يكثر هنا: الجـوز Noix والنبق Jujubes والخوخ peches والاجاص prunes. وتجري هنا عملية تصفية السكر الذي يصل من فارس. واذ ان الليمون والاترج لايمكن الحفاظ عليهما لايـام الصيف فانهم يصنعون منهما عصيراً يحتفظون به لموسم الحر.

وتوجد هنا من الحيوانات : الاغنام والماعز والثيران واما الجاموس فهو كثير العدد. وهذا الحيوان الاخير انتقل من اسيا الى اوربا. تكاد تكون كل الحمير بيضاء اللون. وهنا تجد الخيل الاصيل. واما الصيد فيزود الناس بانواع الطرائـد، منهـا: الحجل Perdrix والدراج Francolin والابـل Daims والغـزلان Gazelles والخنـازير Sangliers والعـصافير علـى انواعهـا. وتـرى اليمـام البـري Tourterelles والحمام الذي يحوم فوق سطوح المدينة، وهو كبير الحجـم ولـه ريش مدهش، ولايزالون يستخدمون هذه الطيور لحمل الرسائل[1].

وهذه هي طريقة تدريب الحمام على هذه المهمة: تحمل السفن النازلـة مـن بغداد الى البصرة بعض هذه الطيور ثم تتركها بعد مسافة محدودة؛ ويعاد التمـرين بعد ذلك من مكان ابعد، وفي آخر الامر تنقل الطيور الى البصرة وتتـرك هنـاك. فهذه الطيور تتمرن تدريجياً على معرفة الطريق وتطير مع مجـرى المـاء الـذي

---

[1] - الحمام الزاجل واستعداده لحمل الرسائل. انظر: الجاحظ: الحيوان، تحقيق يحيـى الـشامي، القاهرة 1997، 1 : 475 ؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى، القاهرة 1374 هـ 1 : 382 ؛ ويسمى النويري هذا الحمام بالعلوي ويقول عنه انه: يطلب وكره ولو ارسل مسافة الف فرسـخ ويحمل البطائق وياتي بها " النويري : نهاية الارب 10 : 270

يهدي الى الطريق الصحيح. واذا بها بعد ساعات تكون قد قطعت المسافة بين البصرة وبغداد.

وتوجد في بغداد اعداد كبيرة من اللقالق التي تحط فوق السطوح.

خشب الوقود غالي الثمن في بغداد ويحمل اليها من اماكن اسفل دجلة، وهي عادة خشب الاثل او الصفصاف التي تحمل وهي لاتزال خضراء. ويعوضون من ندرة الخشب بالروث المجفف.

ريح السموم

لعلكم سمعتم احياناً عن ريح السموم التي تهب احياناً، ولحسن الحظ ليس دائماً، على بغداد. ويزعمون ان الريح في قدومها من الصحراء يوقفها النهر فلا تصل الى المدينة. تهب هذه الرياح في شهري تموز وآب، وهي رياح حارقة مشبعة بابخرة كبريتية. وتنطلق على شكل اعمدة عالية، وتترك الموت حيثما تمر خاصة لمن يستنشقها. واظنها ناتجة عن العيون الكبريتية والنفطية الكثيرة المتناثرة في الصحراء وفي الاماكن التي تتجمع فيها مياه الشتاء وتركد وعندما تقترب قطعان الغنم الخاصة بالاعراب من هذه المستنقعات، تستبعد هذه المواد العفنة التي تكون طبقة فوق سطح الماء، وتعمل حرارة الشمس على تفاعلها فتصعد منها هذه الابخرة القاتلة، وتتركز هذه الابخرة السامة بفعل الريح وتتوزع في الجو فتسبب الموت لكل من يتنفسها.

ان العرب يعرفون جيداً كيف يتقون خطر هذه الرياح: فما ان يلاحظوا الدوامة التي تجمع الاثرية عامودياً فيعلمون بانها قد تكونت وانها في طريقها اليهم، فينبطحون على الارض ويلتفون جيداً بارديتهم، ويجعلون الفم والانف والعيون أي الوجه كله تجاه الارض. والمعروف ان هذه الدوامة تمر سريعاً فما ان تعبر حتى يزول خطرها. ويظهر ان هذه الدوامات لاتلمس الارض، لا بل يقال ان اديم الارض يبعدها فاذا لم تلمس الجسم مباشرة فلا خطر على الانسان لان الملامسة المباشرة تسبب الموت.

الحيوانات من ذوات الصوف والشعر لاتموت، لكن تنفسها هذه الرائحة المنبعثة من الدوامة تسبب تعرقها وتسقط صوفها او شعرها. اما الجمال فان غريزتها علمتها ان تنبطح على الارض كالبشر.

الارضية

ان بيوت بغداد موبوءة بحشرة النمل الابيض، الارضة[1] Carias، ويقال انها حملت من الهند الى البصرة، وتروي القصص التي يرددها الهولانديون بان الارضة التهمت حملاً كاملاً من الحديد وعدداً من المدافع: قد تكون هذه قصة اختلقها شخص لم يكن امينا في ما اودع عنده لكي يضيع اثار سرقته. مهما يكن من امر فان حشرة الارضة التي لها يدين ورجلين هي من اشره الحشرات.

منذ ايام والكلام يدور حول قرب سفرنا، لكن هذا الكلام كان اشبه ما يكون برعود بلا مطر. واخيراً حلت ساعة الرحيل، فقدم السيد سليفان حصانه هدية الوالي الى الرهبان مع عشر قطع من فئة السكن. ولعل الحصان كاد يكون من حصة مانوك لو كان تصرفه افضل. فطلب منه الحساب لكنه امتنع عن تقديمه فترك له السيد سليفان مئة وخمسين قرشا وهو لم ينفق بالتاكيد اكثر من مئة وعشرة ولذلك ربح والحالة هذه اربعين قرشاً بالتاكيد وكانت الهدايا الاخرى التي جرى توزيعها هنا وهناك يبلغ ثمنها مئة قرش على الاقل.

---

[1] – تسمى هذه الحشرة في بغداد ارضة او ريماس ، وهي اكبر عدو للخشب والكتب والعياذ بالله.

الفصل الثاني عشر

الرحيل من بغداد والوصول الى البصرة

بعد ان تغلبنا على مختلف الصعوبات والدسائس، وانتهينا من الازعاجات المختلفة، رحلنا من بغداد، وقد بلغت نفقات المكوث في المدينة والسفر الى البصرة على السيد سليفان الفي قرشا.

سبقنا الحرس الى القوارب ولم يقصروا في اثارة الصخب واطلاق الطلقات النارية في المدينة. وهولاء الحراس يكونون سرية قوامها ثلاثين رجلاً يغطون رؤوسهم بكمة من جلد الوشق[1] Loup cervier فيعرفون بهذا الزي. انهم حرس الوالي الخاص ويعملون على حسابه. لان الانكشاريين[2] يعملون على حساب الخزينة الملكية، ويرسل الباب العالي رواتبهم ثلاث مرات في السنة.

كانت سفينتنا جديدة وقد تم بناؤها في مدة حلولنا في بغداد. وكان وجود الحرس بيننا يخلق لنا بعض الارتباك لكنه في آخر الامر مفيد لنا ضد هجوم الاعراب. وقد اخذنا معنا كمية حسنة من التتن والصابون وبعض الاقمشة لكي نقدمها هدية الى رؤوسائهم.

هذه السفن التي تعد في بغداد وكذلك في البصرة يطلق عليها اسم تكني Tekne وهي بطولها وعرضها تشبه سفينتنا المسماة « ترتان» Tartane وفيها غرفتان: الواحدة في المقدمة والاخرى في الكوش، ولها سارية طويلة وشراع مربع

---

[1] - الوشق : دابة تتخذ منها الفراء الجيدة . وهو نوع من السباع من فصيلة السنوريات ورتبة اللواحم (المنجد) .

[2] - الانكشارية (= تركية) محرفة من ينيجري أي الجند الجديد ويكتبها الاتراك يكجري ويلفظون الكاف نوناً وهم جنود مشاة دام امرهم من االقرن 14 الميلادي الى سنة 1826 عندما ابادهم السلطان محمد الثاني لطغيانهم. واصل هذا الجيش من الصبيان المسيحيين الذين كانوا يؤخذون كجزية او كغنيمة في الحرب فيدربون تدريباً عسكرياً ويتشبعون بروح التضحية للسلطان.

الشكل. فعندما تهب الريح ينشر الشراع فتسير السفينة مندفعة بقوة الريح، ولكن بما ان في النهر دورات كثيرة يضطر الملاحون الى قيادته بقوة الجذف.له ستة مجاذيف من كل جانب. قعر السفينة مستو بالواح من شجر التوت او النخيل وكذلك جوانبه. وهو مطلي بطبقة ثخينة من القطران او بالاحرى بالقير.

يجلبون القير من عين تقع في بغداد القديمة. وللقير استعمالات عديدة : منها طلاء الحمامات أواني الماء المختلفة. وكمياته غزيرة بحيث انهم استعملوه للبناء في اسوار بابل يستخدمون الكلك – كما ذكرنا – للنزول في دجلة الى بغداد، وفي الفرات الى الحلة؛ وبعد هاتين البلدتين يتم السفر بالسفن حتى الخليج حيث هناك سفن مختلفة الاحجام يستغرق طريق العودة من البصرة الى بغداد في دجلة اربعين الى خمسين يوماً، وخمسة عشر يوماً في الفرات للوصول الى الحلة لان دورات الفرات هي اقل من دورات دجلة، ويتم الصعود في هذا النهر او ذاك بالجذف أي بقوة الاذرع.

لم نسر كثيراً في اليومين الاولين بل بقينا بجوار المدينة منتظرين قارباً آخر على ظهره رجال منفيون من بغداد الى البصرة بامر الوالي وعددهم عشرة.

ضفة النهر مستوية وواطئة ورملية، ومزروعة في بعض المواضع لم نعد نشاهد النخيل بكثرة. راينا ان للثيران في هذه المنطقة حدبة لحمية شبيهة بالثيران الهندية. ونجد صورة هذا الحيوان الاحدب على عدد كبير من مسكوكات آسيا الصغرى.ان حدبة هذا الحيوان تحتوي على لحم لذيذ جداً، وكذلك ذيل الغنم الدهين[1].

نهر دجلة كثير التعرجات في هذا المكان. خفافه رملية تعيق السير. عبرنا نقطة التقاء ديالى بنهر دجلة اذ يصب فيه باندفاع كبير، وهذا الاندفاع رمى بنا بعيداً وبالكاد استطعنا ان نخلص انفسنا بتعب كبير.

في ظني ان ديالى هو نهر كواسب Coaspe الذي يذكره بليني، الذي كان يجري بين سلوقيا وهي بغداد اليوم وبين طيسفون التي ليست بعيدة من هنا والتي

[1] – يريد الالية(لية الخروف) التي تتميز بها فصيلة الخروف العراقي .

يطلق عليها «طاق كسرى» يقول بليني ان الملوك الفرثيين ما كانوا يشربون الا ماء كواسب ومن نهر اولي EuIee.

توقفنا عند المساء، ونزل رفاقنا الى البر لاعداد البلاو[1] واجتمع الملاحون والجنود الى بعضهم وشرعوا يتكلمون باعلى اصواتهم فازعجونا جداً. وبينما يتصف الترك بالبرودة والهدوء والصمت نرى العرب بعكسهم ثرثارين يثيرون الصخب.

في اليوم التالي 22 تموز تخلصنا من المواقع الواطئة، واذ هبت ريح حسنة باتجاه الشمال – شرق لذلك نشرنا الشراع فسرنا بلراحة، ورأينا على شاطيء بين النهرين قبر جعفر الطيار Giafir-eI-TeJar، واكمة عالية حصلوا فيها على البارود ايام الحرب بين الاتراك والفرس. اما في الضفة المقابلة فهناك آثار قصر كبير لملوك الفرس وهو عبارة عن قوس عال مشيد بالآجر يقال له« طاق كسرى»[2] ويردد التقليد المحلي ان عقادة القصر سقطت عند مولد محمد• (ص). وعلى بعد ميل من هنا نجد طيسفون[3] ولا تشاهد هناك اليوم غير اكوام رملية تراكمت مع الزمن من جراء هدم البناء القديم الذي كان مشيداً بالطين بكل تأكيد.

وبعد قليل رأينا ضريحاً تظلله نخلة، قالوا عنه انه قبر سلمان الطاهر (سلمان باك)، ومن عادة المسلمين الحج الى هذا المكان.

يقول سترابو: «بعد سلوقيا (بغداد) هناك الضاحية الكبيرة وهي طيسفون حيث كان الملوك الفرثيون يمضون فصل الشتاء لطيب المناخ؛ اما في الصيف فكانوا

---

[1] – هو الرز المطبوخ ، وادركت في الخمسينيات من القرن الماضي بعض النساء المسنات كن يستعملن هذه اللفظة

[2] – انظر وصفاً قديماً للطاق في رحلة ديللافاليه الى العراق ، ص 68 ؛ ومقالة الاب انستاس ماري الكرملي : سلوان الاسري في ايوان كسرى ، المشرف 5 (1902) ص 744 ، 780

• ابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة الايمان بالمنصورة ، الجزء الثاني ، ص 655 – 656

[3] – الحموي : معجم البلدان 3 : 570 .

يذهبون الى اكبتانا في هرقانية». اذاً لاشك بان قصر اولئك الملوك الفرثيين هو هذا المكان، لكن كل شيء آل الى الخراب وما بقي الا هذا القبر الحديث العهد.

على مسافة غير بعيدة من هناك كانت «رومية»[1] البلدة التي شيدها انوشروان على طراز انطاكية التي استولى عليها ونقل بعض سكانها الى رومية هذه. ويقول المؤرخون العرب ان بناء رومية كان شبيهاً كل الشبه بالاصل بحيث ان سكانها الجدد عندما وصلوا اليها عرف كل واحد طريقة فدخل بيته.

تقع هذه الخرائب على مسافة ست ساعات من السير من بغداد على شبه جزيرة طولية الشكل، وتتقدم في النهر بحيث ان من يمر بجوارها في السفن يرى كل واجهاتها.

عند المساء وجدنا اسدين يتنزهان بجلال على الشاطيء، وقد رميت باتجاههما اطلاقات نارية لكنهما لم يضطربا كثيراً، وعاد احدهما ثانية فالقى نظرة على السفينة ثم اكمل سيره بهدوء[2].

كان سيرنا بطيئاً جداً في الايام بين 23 ـ 29 تموز لان تعرجات النهر كانت تحول دون نشر الشراع. وفي احد المرات جنحت سفينتنا وبقيت اكثر من ثلاثين ساعة على حالها، وكان علينا الانتظار لكن هذه الحالة ليست خطرة لان قاع سفينتنا مستوى وضفاف النهر رميلة، فهنا يختلف الامر عن نهر الدانوب مثلاً حيث الضفاف الصخرية التي تكسر القوارب اذا اصطدمت بها.

العمارة:

وصلنا الى العمارة Amara التي يقال انها في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة، وهناك جددنا مؤونتنا فاشترينا ستة خراف وثلاثة حملان وماعزتين

---

[1] – المرجع نفسه 2 : 867

[2] – تشير الاثار القديمة الى وجود الاسود في بلادنا، نراها في الاثار الاشورية والبابلية. وكان الملوك الاشوريون من امهر صيادي الاسود. وفي القرون الاخيرة ذكر وجودها رحالون عديدون مثل ديللافاليه وتافرنييه وسبتياني وسيستيني وغيرهم .

لنحصل منهما على الحليب، اذ لم يكن من الحكمة ان نذهب كثيراً الى العرب المخيمين عند الشاطيء. واشترينا من العمارة ايضاً دجاجاً وبيضاً[1].

توجد بازاء العمارة قناة حفرتها يد الانسان تنشيء جزيرة كبيرة اسمها جزائر فهي توصل مياه دجلة بمياه الفرات. وينسب هذا العمل الى سليمان احد ولاة بغداد، لكني اعتقد ان هذا العمل هو اقدم بكثير ويعود الى زمن ترجان[2] فهذا الامبراطور اقتطع خشباً من جبال نصيبين لبناء اسطوله الذي انحدر فيه عن طريق الفرات وغايته الذهاب للهجوم على طيسفون الواقعة على دجلة، فكان لابد ان يحفر قناة توصله مع اسطوله الى ذلك الهدف، ولم يكن العمل صعباً لان الارض واطئة وكثيرة المستنقعات اذ تغمرها المياه على اثر الفيضانات. هنا تبدأ المستنقعات الكلدانية بالتأكيد وتمتد جنوباً الى موضع التقاء دجلة بالفرات، ويسكن في هذه الجزيرة عرب من قبيلة بني لام.

رأينا هناك طيور البجع Pelicans والكروان Courlis مع عصافير الماء فوق مياه الاهوار.

ان ريح الجنوب التي تهب في هذا الفصل هي مزعجة جداً فاضافة الى انها ضد سيرنا فهي خانقة ايضاً. وكانت الحرارة قابلة الاحتمال الى الساعة الحادية عشرة اما بقية النهار فتصبح محرقة. اما الاماسي فهي رائعة اذ يصبح الهواء نقياً والسماء صافية وتلمع فيها النجوم بحيث يتمنى المرء ان يبقى الليل كله يتمتع بهذا المنظر الرائع والمناخ اللطيف بعد النهار الخانق. لكن ما يزعج راحتنا في ذلك الوقت هو هجوم البعوض والذباب، وكان من الصعب تجنب اللسعات المؤلمة التي كانت تسببها هذه الحشرات مصاصات الدماء.

ان الشاعر الايطالي « برونزينو» Bronzino الذي نظم شعراً في هذه الحشرات لم يسافر. بالتأكيد.في نهر دجلة ليلا :ولهذا نسمعه يقول: « يعجبني هذا

---

[1] ـ نوه بهذا المقطع من الرحلة يعقوب سركيس في مقالته: العمارة والكوت، مباحث عراقية1: 267

[2] ـ امبراطور روماني (98 ـ 117) حارب الفرثيين .

الحيوان الجميل كثيراً واتمنى ان يتجمع نحو ثلاثين منهم عند اذان اصدقائي لكي يبقوا ساهدين مرحين»!.

قامت هنا قديماً بلدة واسط[1] وكانت مبنية على ضفتي نهر دجلة وذلك سنة 84 هـ وكان يربط الضفتين جسر من القوارب، اما اليوم فلم تعد هذه البلدة موجودة ولا جسرها:وهي وامثالها من البلدان المهمة التي يذكرها المؤلفون العرب زالت كلياً من الوجود.عند بزوغ الشمس راينا من موقع العمارة جبال حمرين القائمة عند حدود فارس. في الثلاثين من تموز اكملنا السير بقوة الشراع طوال الليل لان القعر عميق لكن دورات النهر تبقى كثيرة. راينا في النهار قبراً وسط غابة من اشجار التوت والنباتات الاخرى. ان منظر الاشجار والارض الخضراء في وسط تلك الصحارى يعطي مفارقة مؤثرة وانطباعاً جميلاً للنظر. كان تقدمنا بطيئاً، وكنا نرى الاعراب المجتمعين على ضفتي النهر، وما كانوا يتركوننا نمر الا ويمطروننا بوابل من الشتائم. وكانت الارض منخفضة ولذلك فهي مليئة بمياه الفيضان ولهذا تراها مغطاة باعشاب رائعة كثيرة. وكانت جماعتنا تنزل الى اليابسة كل الليالي تقريبا. وفي احدى المرات بينما كان رجالنا يلهون سوية على مسافة غير بعيدة من مخيم العرب الذي لم نشاهده بل كنا نسمع نباح كلابه، واذا بسبعة رجال من اولئك اللصوص يظهرون فجاة ويلقون التحية : السلام عليكم وعليكم السلام، اهلا وسهلا..... وبعد لحظة هجموا على احد حراسنا ونزعوا سيفه وهربوا. فاسرع رجالنا الى السفينة لياخذوا اسلحتهم فيهجموا على مخيم العرب لكن في هذه المدة كان الملاحون قد نزعوا الاوتاد بينما كان اولئك الاعراب قد توغلوا في وسط الصحراء.

في الثاني من آب اكملنا رحلتنا بقوة الشراع ايضاً، وبعد قليل راينا مخيماً كبيراً أخمنه بالفي رجلاً، وقد طالبونا بالاتاوة وامرونا بالتوقف، فقال لهم القبطان ان السفينة لاتحمل جنوداً ولابضائع، لكنهم لم يرضوا بهذا الجواب، واذ رأوا اننا لم نرخ الشراع عزموا على تصويب بنادقهم نحونا. واذا باحد حراسنا اخذ المبادرة بدون تروي فوجه ناربندقيته نحوهم، وهم وان كانت عندهم نيات مبيتة لكنهم كانوا

---

[1]-يعقوب سركيس :مدينة العلم العريقة واسط ، مباحث عراقية 34:2وما يليها .

في مرحلة التهديد لا اكثر، عندئذ ردوا علينا بزخات الرصاص، ورمى عدد كبير منهم انفسهم في الماء وعبروا الى الضفة التي كنا اقرب اليها، وبدأت المعركة بين الضفتين، فاثار رجالنا ناراً حامية مخيفة ضد المهاجمين لابل رموا المخيم ايضاً بالنار حيث النساء فتحولت المنطقة الى ميدان حرب مخيف اذ تعالى الصراخ والعويل من جهة ونباح الكلاب من جهة اخرى، وكانت الطلقات المنبعثة من كل الجهات تصدر صفيراً قوياً قرب اذاننا! ولحسن الحظ ساعدتنا الريح وانتهت المعركة بابتعادنا وبعد فراسخ قليلة اذا بمخيم اخر قرب الشاطي من جهة ما بين النهرين وهذا بدوره طلب منا ان نتوقف لكن الريح ساعدتنا من جديد فتخلصنا منهم.

في 3 آب راينا قبر محمد بن حسن محاطاً بغابة متشابكة الاشجار خاصة اشجار التوت، بحيث اعطت للموقع ظلاً وافراً ولاحظنا ان ضفة النهر كلها من جانب ما بين النهرين هي مسكونة من العرب بكثافة لان العشب هناك كثير ويمتد على مد البصر وعند المساء هبت علينا ريح رطبة نشرت بيننا رائحة كريهة وعفنة.

في مطلع النهار التالي رأينا من جانب دجلة اليمين قبر عزرا النبي[1] الذي يحظى عند المسلمين بكرامة عميقة، ويحج اليه اليهود وقد شيدوا هناك معبداً صغيراً من الآجر اما القبر فهو مغطى بالخزف [القاشاني] الاخضر، وهناك في وسط الفناء نخلة عالية ومثلها في الزوايا الاربع كما تجد هناك اكواخ للعرب بين اشجار التوت.

يبدأ ماء دجلة من هنا باتخاذ لون البحر لان المد يصل الى مزار عزرا، ولذلك فالماء هنا اقل جودة. وبدأت الحرارة ترتفع منذ بضعة ايام، ولم يعد النهر يتلوى كا لسابق، وهكذا وصلنا الى القرنة وعندئذ انطلق طاقمنا يعبر عن فرحه، فلبس الرجال قبعاتهم الرسمية ونشروا الرايات وحيوا البلدة باطلاقات البنادق. وهذه عادة جارية كلما مرت السفينة ببلدة مأهولة.

---

[1] ــ انه المكان المعروف باسم مزار العزير . يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص 217 ، الحسني : العراق قديماً وحديثاً ، بيروت 1971 ، ص 194 .

القرنة

القرنة هي دكبة Digba التي ذكرها بليني وتقع عند ملتقـــى نهـــري دجلـــة والفرات.

ويدعوها بطليموس ابامية Apamee. وهي اليوم ليست اكثر من قلعة بادارة آغا الانكشاريين التابع لحامية البصرة.

هنا تنتهي ارض بين ما النهرين بنقطة طويلة ــ او زاوية ــ ضيقة وباتحـــاد النهرين يكونان شط العرب وهو نهر عريض وعميق ويصب في الخلـــيج، وكـــان القدماء يطلقون عليه اسم " بازيليكا " أي النهر الملكي وذلك بسبب عرضه وهيبته.

يطلق الشرقيون ومعهم بليني على احد النهرين اسم دجلة وذلك بسبب سرعة جريانه، ودجلة Tigris بلغة اهل مادي تعني السهم، وهو ينبع بقوة وانـــدفاع مـــن مغارة تقع الى الشمال من دياربكر، ويتصل بالفرات بواسطة احدى القنوات ويتحد بهذا النهر في القرنة، للفرات فرعان عند منبعه في ارمينيا يقال للاول مراد والاخر فرات....

الفصل الثالث عشر

الوصول الى البصرة والمكوث بها

ان نقطة ما بين النهرين على ما يظهر هي المكان – الذي يوحي – بالبهجة للناس الذين قطعوا الصحراء. فمنها تبدو ضفاف النهرين مغطاة بالنخيل التي بشكلها وبامتدادها وخضرتها تريح النظر. فان كان الفردوس الارضي هنا كما يدعون، فان آدم كان مرتاحاً هنا بالتأكيد لكني اظن ان هذه البقعة من الارض جميلة لمن يمر بها مرور الكرام دون ان يسكن فيها.

هنا دفعنا ضريبة الكمرك كما قدمنا هدية صغيرة للقائد واذ هبت ريح الشمال عندئذ اكملنا طريقنا اثناء الليل. وفي الساعة الحادية عشرة نهاراً وصلنا الى قناة البصرة وهناك خمسة وسبعون ميلاً من ملتقى النهرين الى هذه القناة، وتسعون ميلاً من البصرة الى الميناء المطل على الخليج، وان دورات دجلة الكثيرة تجعلني اخمن المسافة بين بغداد الى موقع التقائه الفرات عند القرنة بنحو اربعمائة وخمسين ميلاً.

رأينا عند مرسى البصرة سفينة انكليزية من بومبي وسفينتين عثمانيتين قادمتين من سورات[1] وقوارب عربية من انحاء الخليج.

قدمت لنا السفينة الانكليزية قارباً لننتقل به في قناة البصرة لانها ضيقة، ويبلغ طولها فرسخاً واحداً. فمضينا في القناة حتى رسينا عند المعمل الانكليزي، وبعد العشاء اخذنا المقيم السيد لاتوش لننام في بيته بالريف الذي يبعد فرسخاً واحداً ويقع عند القنال في وسط ارض واسعة تعود الى السيد فلافيو المقيم القديم. وكان للشركة الانكليزية سابقاً ملكاً خاصاً بها لكن الفرس دمروه ويمضي السيد لاتوش الصيف في هذا البيت الريفي لان البصرة تصبح حاراً جداً، وتكثر فيها الحميات في ذلك الفصل.

---

[1] – سورات من موانئ الهند استولت عليها شركة الهند الشرقية الانكليزية التي لعبت دوراً مهماً في السياسة والتجارة في هذه البلاد بعد ان انتزعتها من السيطرة البرتغالية سنة 1614 .

ها قد وصلت اخيراً الى نهاية رحلتي، ولم يكن حيدر علي في حرب ضد الانكليز لرافقت السيد سليفان الى الهند، اما الان فلا استطيع الرجوع وحدي عن طريق الصحراء اذ ساهلك بالتاكيد من العطش، لذلك علي ان انتظر فرصة موآتية ومناخاً اقل حرارة لكي اسير في طريق حلب.

تبدأ الحميات بالبصرة في شهر تموز، وقد اصبت بها، وظننت لوقت طويل اني سابقي هنا الى الابد في ظل احدى النخلات لكني شفيت بقوة مزاجي وبفضل اهتمام طبيب الشركة، وان كثيرين من موظفي الشركة الانكليزية لم يساعدهم الحظ فماتوا... هذه الانواع من الحميات خطيرة جداً وتقضي على الانسان في ايام قليلة واذا لازمت الانسان بضعة ايام فانها تضعفه فيصبح هزيل البنية بقية ايام حياته. ان الحمى التي اصبت بها شفتني من احتقان في عيني.

عشنا اياماً حزينة جداً مع ذلك المناخ الحار حتى في مسكننا الريفي، وكانت تسليتنا الوحيدة تسلم اخبار سفننا الفرنسية التي كانت تجوب في مياه الخليج.

اخيراً انهت السفينة استعداداتها، وفي 21 ايلول وكان اليوم الاول من شهر رمضان، سرنا اليها مرافقين السيد سليفان للوداع. وبعد ان رحل انتقلت الى بيت الاباء المرسلين، وهناك بلغتني اخبار الاب « توريتي» Torretti الذي اصله من تورينو فقد وصل الى بغداد عن طريق حلب وحصل على بعض المال من تعاطيه الطب ن واهدوا له حصانين استطاع بواسطتهما القدوم الى البصرة، وهنا سكن عند القنصل الهولندي ثم ذهب الى شيراز واضاع كل مذخراته فعاد الى البصرة يجر اذيال الخيبة فحصل على ضيافة الانكليز.....

اما الاب لويجي من اهل سيينا [ايطاليا] وهو نائب رئيس الرساله في البصرة فقد باع لي عدداً من المسكوكات، منها ذهبية ومنها فضية او برونزية، تعود بعضها الى زمن الملوك الفرثيين واخرى الى ملوك سودا وهي اليوم ضمن مجموعة السيد انسلي M.Ainslie التي تبلغ عشرة الاف قطعة من دون اعتبار المتكررة منها، وقد اقتنى كل هذه المسكوكات في ارجاء الدولة العثمانية اكان مباشرة ام بواسطتي.

دير الاباء الكرمليين

ان دير الاباء الكرمليين هو اجمل بناء في البصرة بعد الـــشركة الانكليزيـــة. كنيسة الدير كبيرة وحسنة البناء، بعض هولاء الادباء يعرفون الارمنية او العربيـــة واكثرهم حكمة له عادات غريبة، منها انه لايزال يستعمل ريشة الكتابة التي جلبهـــا معه من روما.

البصرة

ان مدينة البصرة حالياً في حالة ردئية، فقد اخربها الفرس كلياً، يحـــيط بهـــا سور مطمور. بيوتها سقيمة ومتبعثرة بين النخيل، تمر بها قنوات صـــغيرة كثيـــرة فتجهز البيوت والبساتين بالماء.

يرجع زمن تأسيس البصرة الى سنة 14 هـــ على عهد الخليفة عمر على يـــد عتبة بن غزوان الذي اسكن فيها ثمانية الاف نسمة.

ان تريدون Teredon التي يتكلم عنها بليني والتي نجدها في الخرائط القديمة كانت على ما اعتقد على بضعة فراسخ من هنا، في موضع يقال له اليوم: البصرة القديمة. وتقع البصرة الحالية على درجة 30،3 درجة عرض شمالاً، وكانت تعـــود في العصور الماضية الى عرب الصحراء قبل قدوم الاوربيين اليها للتجـــارة وقـــد عمل الاتراك على ابعاد العرب ثم تصالحوا معهم على شرط ان يبقوا هم [الاتراك] اسياد المدينة، ويبقى هولاء [أي العرب] على بعد ثلاثة فراسخ من البصرة. فوضع الاتراك فيها حاكماً وحامية، وشيدوا لها قلعة في وسط المدينة، ويرسل والي بغـــداد جنوداً اليها بصورة مستمرة.

اما العرب فقد رفعوا مراراً عديدة السلاح ضد الاتـــراك وحاصـــروهم فـــي قلعتهم، وحدث ان احد الحكام الاتراك باع مكانه بالمال الى احد العرب الذي اعلـــن نفسه مستقلاً عن السلطان[1]. ولكن بعد استرجاع بغداد من الفرس على يد الـــسلطان مراد الرابع، فان امير البصرة الجديد قبل ان يدفع له ضريبة وعدد مـــن الخيـــول

---

[1] ــ الكعبي : زاد المسافر ومهنة المقيم والحاضر ، بغداد ــ 1958 ، ص 17 و ما بعدها !
لونكريك : اربعة قرون ، ص 127 .

وهدايا اخرى. اما شاه عباس ملك الفرس فبعد ان استعاد [ميناء] هرمز[1] ارسل جيشاً بقيادة امان قلي خان لمحاصرة البصرة فما كان من امير البصرة الضعيف امام الفرس الا ان طلب من جيرانه سكان الصحراء ان يفتحوا السدود التي على طول النهر فانطلقت المياه وحدث من جراء ذلك فيضان عام امتد على ما يقال اثني عشر ميلاً في الصحراء فوجد الفرس انفسهم محاصرين بالماء فاسرعوا بالانسحاب تاركين عدداً كبيراً من الات القتال.

لكن المناطق المجاورة للبصرة لحقت بها اضرار كبيرة من فيضان المياه المالحة الذي دام زمناً طويلاً وكان يتجدد كل ما حدث مد البحر ولذلك فالاراضي المحيطة بالمدينة بقيت قليلة الخصب الى اليوم. وبعد انسحاب الفرس دعا امير البصرة البرتغاليين فجاؤا لمعاطاة التجارة فيها.

عاد الاتراك ليحكموا البصرة سنة 1079 هـ[2] وهي سنة 1776 م لكن الفرس اخذوها منهم في شهر اذار 1779 على يد كريم خان، لكنه عاد وباعها لهم وانسحب، وقد ضرب لهم عملة من ذهب واخرى من فضة، وكعادة الشرقيين الذين يميلون الى التفخيم فقد اطلق على البصرة اسم «ام المدن».

عندما باع الفرس البصرة للاتراك، ارادوا ان يسوقوا عدداً كبيراً من العرب كعبيد، فحركت المشاعر الانسانية الانكليز فقرروا افتدائهم، عندئذ راى الاتراك انه من العار ان يعطي الكفار مثالاً حسناً فيفتدوا المسلمين فاكملوا الصفقة، لكن العرب لم ينسوا موقف الانكليز المشرف فبقوا متعلقين بهم.

يسكن البصرة اتراك وارمن ونساطرة ويهود ويبلغ عدد سكانها بين الفين وثلاثة الاف نسمة لان الطاعون الذي اكتسح البلاد سنة 1773 خرب اسيا كلها واوصل البصرة الى هذا العدد القليل من السكان.

---

[1] ـ استعان الشاه عباس بالانكليز لطرد البرتغاليين فاستعاد الميناء سنة 1622 ،
Wilson , A. , The Persian Gulf . Oxford 1928 . p. lol ss ,

[2] ـ هناك خطأ فان سنة 1776 م تقابل 1189 هـ 1189هـ وتجد تفاصيل الحروب في البصرة عند العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين 6 : 51 وما يليها .

المعمل الانكليزي

يرفع المعمل الانكليزي العلم كل ايام الاحد. وهناك معمل جلبي Celebi من سورات Surate وهذا له رايته الخاصة. ولشركة الهند مدير مقيم له دائرة كبيرة وله حرس خاص مكون من خمسين سباهي[1] ومدافع عند المدخل، وعند خروجه يسير امامه خيالة مع عصا كبيرة من الفضة وهذا شرف لايحظى به حتى السفراء في اسطنبول، فالانكشاريون هناك يبقون- واقفين- على الارض. والى زمان قصير مضى كان المقيمون يفرضون على الاهالي الوقوف عندما يمرون في الطرق وان يقفوا للسلام عليهم،لكن الانكليز انفسهم شعروا بان كرامة العرب قد تجرح من هذا التصرف فاهملوا هذه العادة.

ان بيت السيد لاتوش المقيم الحالي يعمل فيه عرب من اهل البلاد ويتكلمون الانكليزية والبرتغالية اما الطباخ فهو ايراني مسلم ويعد افضل الاطباق وهو يرفض – بالطبع – لحم الخنزير المتوفر هنا بكثرة، فيقوم الارمن بالمهمة في هذا الميدان. لان العرب، وليس كلهم لايتسيغون اكله ولاطبخه.

القواصون العرب أي حرس الشرف يقدمون خدما تهم على المائدة بعكس ما يجري عادة في اسطنبول حيث ان الانكشاريين المعينين في خدمة السفراء لايقدمون اية خدمة في البيت بل يكتفون بالوقوف وتأدية السلام عندما يخرج صاحب الدار.

المراكب:

كانت مراكب السفن سابقا تتقدم الى مسافة خمسة فراسخ او ستة جنوب البصرة، اما اليوم فبامكانها ان تتقدم الى مدخل القناة وباستطاعتها ان تصعد من دون أي خطر الى ملتقى النهرين أي القرنة.

تأتي الى هنا سنويا اربع سفن الى ست من سورات مرسلة من بيت جلبي وهم ارمن من مواليد الموصل، حاملات اقمشة قطنية وانسجة من انتاج كوسورات Gusurate. وكان السلطان مصطفى الثالث قد منعهم من استيراد هذه الاقمشة لكن

---

[1] – سباهي (فارسية) الجنود الخيالة النظاميون .

السلطان الحالي سمح بذلك[1] وتحمل هذه السفن ايضاً الخيزران الذي يصنع منه العرب رماحهم وهو سلاحهم العادي الذي يهجمون به او يدافعون به عن انفسهم عند الحاجة لابل يجلبون الواح الخشب الضرورية لبناء المراكب ـ وخشب الوقود وبعض الاحجار.

ترسل بومبي مركبين لحمل بريد المراسلات وتاتي بافضل الواح التيك Tek وهو خشب متين جداً يشبه خشب الجوز، واقمشة بقيمة ثلاثين الى اربعين الف جنيه توزع على اسواق ايران وبغداد وحلب. ان شركة الهند تخسر لكن مصانع لندن تجني الارباح. وعندما تعود السفينتان الى بومبي تحملان المسافرين اضافة الى تمور وقهوة وعفص نترات والرهج الاصفر[2] والملح ايضاً احياناً.

ويرسل البنغال الانسجة الموصلية وهي دقيقة الصنع. ويحمل الهولنديون التوابل والقرنفل والفلفل والدارسيني والسكر الابيض[3] ياتون الى هنا لمبادلة هذه الفروع التجارية لكي يأسسوا مصافي rafineries في البنغال.

وتحمل القهوة المنتجة في مخا[4] الى مسقط، ومن هناك تنقل الى البصرة ومنها الى ارجاء الدولة العثمانية.

من عادة البصرة انها لاتتبادل البضائع بل تدفع نقداً، ولهذا السبب نجد في الهند كمية كبيرة من العملة النمساوية والبندقية والتركية، وهذه الاخيرة اقل من الاولى لان عيارها اخف وتفقد القيمة عند المعاملة في الهند.

كانوا قديماً ينتظرون هبوب ريح الموسم ليبحروا، اما الان فانهم يبحرون في كل وقت ان البيوت الرئيسية في البصرة هي :

ـ بيت اريتون (ارمن)

ـ بيت استيفان (ارمن كاثوليك)

ـ بيت خواجا روبين (يهودي)

---

[1] ـ مصطفى الثالث (1757 ـ 1773) خلفه السلطان عبد الحميد الاول (1773 ـ 1789)

[2] ـ Orpiment سلفان طبيعية صفراء اللون تستعمل في صناعات مختلفة .

[3] ـ Sucre blanc . canella . poivre . clous de giroflc – epicerie

[4] ـ مخا : مرفأ في اليمن اشتهر بالبن الذي عرف في سائر البلدان باسمه .

ـ بيت خواجا يعقوب (يهودي)

موقف الخواجا يعقوب

لقد لعب هذا الاخير، أي الخواجا يعقوب، دوراً مهماً في زمن حصار الفرس، فقد اظهر موقفاً وطنياً ناصعاً، لانه اطعم ـ رجال ـ الحامية على حسابه لمدة طويلة، وصرح للقائد قائلاً : انه من اجل الدفاع عن البصرة مسقط راسه فانه مستعد ان يضحي بكل اللؤلؤ لاطعام الجنود. وعندما استولى الفرس على المدينة اراد كريم خان ان يقطع رأسه لكن لانكليز تدخلوا وحصلوا على العفو، وهم ـ أي الانكليز ـ يتذمرون اليوم منه ويقولون عنه بانه لم يكن وفياً نحوهم.

كان كل اللؤلؤ الذي يصاد في الخليج يتجمع في البصرة قبل حرب الفرس، اما اليوم فقد تحول الى مسقط ومن هناك يحمل الى الهند والصين.

ان حشرة الارضة التي حملتها السفن القادمة من الهند تلحق اضراراً بالغة في مستودعات البضائع، ويعالجون المشكلة بنثر الملح بكميات على الارضيات ثم يضعون البالات فوق روافد.

ان اكثر القوافل الواصلة الى البصرة ـ كانت سابقاً ـ تاتي من حلب قاطعة البادية، وقد قلت الان فاصاب التجارة بعض الفتور.

على بعد ثلاثة فراسخ من البصرة تقع البصرة القديمة ويسكنها عرب عشيرة النجادة وهناك خرائب كثيرة، ويعتقد بانها طريدون القديمة Teredon او بللاكوباس pallacopas

التي ذكرها اريانوس فهو يقول: بينما كانوا يحفرون ميناء ويبنون مراكب في بابل، نزل الاسكندر في الفرات الى بللاكوباس، ويضيف، ودخل هذا الامير في بحيرة تقع بعد بللاكوباس فانحدر الى بلاد العرب، فرأى بلداً حسناً للتجارة، فشيد بلدة احاطها باسوار، وترك هنا جماعة من المجندين اليونان، والجنود الذين امسوا غير قادرين للخدمة بسبب تقدمهم بالعمر واتعاب الحرب ان بليني يتكلم بالتاكيد عن هذه المدينة فدعاها الاسكندرية، وقال: شيد الاسكندر على الفرات مدينة اعطاها اسمه، وفيها ضاحية دعاها بيلا Pella باسم مسقط رأسه في مقدونية لكن مياه النهر

خربت هذه المدينة فاعاد انطيوخس الخامس بناءها باسم انطاكيا لكن الـصوكوديان sogodiens خربوها من جديد ثم ان اميراً عربياً من اتباع انطيوخس – على قول يوبا اعاد بناءها وشيد السدود ليبعد عنها الفيضانات وترك لها اسماً جيداً هو «بازين» Pasines وهذا الموضع يسمى اليوم الزبير، وهو اصح هواء من البصرة، واهل البصرة يذهبون الى هناك ليسترجعوا قواهم، وكذلك في المناوي وهي قرية صغيرة تقع على النهر يسكنها الصابئة او نصارى القديس يوحنا[1].

تجتمع القوافل عادة في الزبير لتنطلق منها، كما ان القوافل القادمة تتوقف فيها عند وصولها، ويفرض شيخها اتاوة على المسافرين عن المرور، ويتحاشى متسلم البصرة بان لا يختلف معه – تسير في كل سنة قافلة كبيرة من الجمال لبيع بضائعها في حلب ودمشق، وكانت قبل حرب الفرس تعد اكثر من ستة الاف راس، اما اليوم فلا تزيد عن الفين وهناك الخيول الاصلية ايضاً فهي ليست نادرة. والمعروف ان نادر شاه اهلك افضل سلالات الخيول عند هجومة على كردستان.

ان السكن في البصرة ليس امراً مسلياً للاجنبي، فالمناخ في حزيران وتموز وآب حار جداً، ويبرد قليلاً عندما يهب ريح الشمال، وقد يحدث ذلك في اواخر شهر آب لكن الحر يعود من جديد في ايلول.

درجات الحرارة

عندما تبزغ الشمس يشير مقياس الحرارة الى 80 درجة، وفي منتصف النهار يصل الى 90، ونحو الساعة الرابعة يصل الى 94 وقد يتعداها في بعض الايام الى 105 درجة. وارتفعت درجة الحرارة في السنة الماضية الى 116 فانتشرت الحميات وقضت على حياة الكثيرين[2] وتكثر الامطار في الشتاء، اما الثلج

---

[1] – الصابئة المندائيون جماعة دينية معروفة في العراق ، وقد وهم سيتيني وغيره من السياح باعتبارهم فرقة مسيحية وذلك بتأثير الاباء الكرمليين العاملين في البصرة . انظر : رحلات سبستياني الى العراق، ترجمة الاب بطرس حداد ، بغداد 2004 ، ص 49 و128 وماليها .

[2] – الدرجات المذكورة بمقياس الفهرنهايت 80 = 27 مئوية و 116 = 47 مئوية ويستغرب السائح منها، ونحن نعيش هذا المناخ ونتحمل هذا الحر سنوياً ..... وخاصة عند انقطاع التيار الكهربائي !

فهو نادر جداً، لكن المناخ يكون بارداً رغم ذلك لا يستدعي عادة ايقاد النـــار فـــي البيوت، الطرق غير مبلطة وهي كثيرة الحفر ويتراكم فيها الوحـــل بعـــد هطـــول الامطار.

الحياة اليومية

وهذا هو منهاجي اليوم: انهض من النوم في الصباح الباكر فاذهب للنزهـــة على ظهر الحصان او في العربة، فقد جلب السيد لاتوش واحدة من بوميي، وما ان تشرق الشمس حتى اعود الى البيت لان الحر يشتد عندئذ، فنتناول الفطور المكـــون من القهوة او الشاي والزبد الذي نـــشرتيه مـــن العـــرب ويـــشترك الـــذباب فـــي وجبتنا!.....

ثم يمضي كل واحد لعمله كالكتابة مثلاً او المطالعة الى الساعة الحادية عشرة عندما ترتفع الحرارة بحيث تجعل كل نشاط مستحيلاً فنلعب البليارد الى ان يحـــين وقت الغداء الذي نتناوله في منتصف النهار. ومن اجل الحـــصول علـــى بعـــض البرودة فانهم يضعون على الابواب عيدان عرق السوس التي ترش بالماء بواسطة مضخة لان الهواء عند مروره بها يفقد حرارته فيأتينا بارداً لكن ذلك لم يكن يجري في كل الاوقات ولذلك نغلق الابواب وفي الهند يستخدمون عوض الاغصان قطعـــة قماش رقيقة مبللة بالماء يمر الهواء من خلالها.

وجبة الغداء جيدة وتستمر وقتاً طويلاً خاصة عند تناول التحلية في اخرها، فخلال ذلك تفرغ قناني عديدة[1] وندخن البايب وبعد الغداء شاء المرء ام ابى لابد ان ننام قليلاً لكن ذلك ليس سهلاً بسبب الحر، ولان الاسرة بسيطة اشبه مـــا تكـــون باسرة الميدان بلا فراش بل بوسادتين توضع الواحدة عند الرأس والاخـــرى عنـــد الساقين !..

يتم النهوض عند حلول المساء، فبعد الاغتسال ولبس الثياب نتناول الـــشاي ثم نذهب للنزهة بعد غروب الشمس، واثناء هذه النزهة يـــصعد خـــدمنا الاســـرة

---

[1] ــ لم يذكر السائح ما في القناني اهو خمر ام جعة ام شربت ؟

والكراسي والموائد وسائر الاثاث الى السطح فيجري تنظيف الغرف. وعند عودتنا من النزهة نصعد.

حالاً الى السطح لان داخل الغرف يتحول الى فرن. فنتناول العشاء في الساعة العاشرة فالليالي رائعة وكان اكبر سرورنا ان تمتد سهرتنا لان ما ان ترمي بنفسك على الفراش حتى يهجم عليك جيش من البراغيث، ولايستطيع النوم الامن كان عديم الاحساس او اصم لايسمع اضافة الى ذلك هناك الحارس الليلي الذي يصرخ من وقت الى اخر : all well والمفروض ان يصرخ hell all[1] ....

السوق في البصرة

ـ لحم الخروف له طعم لذيذ

ـ الطيور والبيض والزبدة متفوفرة جداً.

ـ الرز جيد جداً

ـ الخمر غالي الثمن. والعرب يشربون العرق وهو مستقطر التمور. اما نحن فلم نكن نشرب في اول الامر غير خمور شيراز او مادير[2] او الخمر البرتغالي وهي خمور محلاة Liquear، لكن احدى القوافل القادمة من حلب مؤخراً حملت الى المقيم الانكليزي كمية حسنة من خمور بوردو [فرنسا] والرائي [المانيا] التي تقبلناها كهبة نزلت علينا.

ـ البرتقال والليمون والعنب موجودة هنا بكثرة.

ـ كان لخمر البصرة سمعة حسنة فيما مضى، لكن الفرس دمروا كل الكروم، كما انهم اقتلعوا شجيرات الورد التي كانت تستقطر فتنتج ماء الورد الذي له سوق رائج.

ـ البقول على انواعها متوفرة.

ـ نجد هنا ايضاً الزيتون والتوت.

---

[1] ـ أي : هل كل شيء على مايرام ؟ انه ـ بالاحرى ـ جهنم !

[2] ـ جزيرة في المحيط الاطلنطي تنتج خمراً جيداً .

ـ توجد حول البصرة ملاحات طبيعية، وبصورة عامة فان الاديم فيه مـــا يشبه الملح و هناك السالسولا Salsola متوفرة فتحرق ويستخرج منهـــا كربونـــات الصوديوم الذي ينفع لمعمل الصابون و الزجاج ايضاً.

لكن المياه الراكدة تجعل الهواء مضراً بالصحة كثيـــراً وعمليـــة الاعتنـــاء بالارض متعبة ومكلفة لان حيثما نظرت ترى الارض سبخة ولذلك يجب رفع هذه الطبقة وحفرالارض عميقاً لتصل الى الارض البكر المنتجة اذ بهذه الطريقة فقــط تسهل عملية زرع القمح و الشعير و الرز و عندئذ يتوفر الحصاد.

الأسماك

يجهز هذا النهر مدينة البصرة بكميات كبيرة من احسن انواع الاسماك وعلى اختلافها، ويأتي العرب الى هنا فيصدرون السمك ويقددونه ليتغذوا به في البواداي، اما طريقتهم في الصيد فانهم يصنعون سياجاً مربعاً من سعف النخل ومن اشـــجار اخرى يكون مفتوحاً من احدى الجهات، فعند مد البحر يرتفع مستوى الماء فيـــدخل السمك في هذا الفخ ويبقى فيه بعد الجزر فيسهل عندئذ جمعه واحسن انواع السمك البني والبرزم وهي أسماك كبيرة الحجم بحيث اعتبرها بعض الكهـــان الكلـــدانيين إلهة.

حيوانات أخرى

كان في البصرة اعداد كبيرة من الارانب – المدجنة- لكن الفـــرس قـــضوا عليها. وهناك الارانب البرية التي تعيش في الصحراء، لكن لا وجود لها حالياً في البصرة

ومن الحيوانات الاخرى، هناك الجمـــل[1] Perdrix والـــدراج Trancolin والدجاج البري Gelinote وكلها جيدة.

وهناك الاثمار المجففة والحلويات التي يؤتي بها من بلاد فارس لكن كل ذلك لا يتناوله الا الاغنياء اما الفقراء فيعتمدون في طعامهم على التمر لأن جانبي النهر

[1] ـ وهو القبج عند العراقيين على قول امين المعلوف : بمعجم الحيوان ص 184

مغطاة بالنخيل، فهذه الاشجار تتطلب ارضاً رملية ورطبة. وتنضج ثمارها في شهر آب وتجنى في شهر ايلول، وكما تختلف انواع الكمثرى والتفاح عندنا بالالوان والاحجام هكذا تختلف انواع التمور.

التمور

تبلغ الضريبة التي تدفع عن التمور الى المستلم في مدخل البصرة اكثر من مليون [غرش ؟] والتمر هنا غذاء الشعب الوحيد ويتناوله كالخبز تماماً. ومستقطر التمر اي العرق هو مادة مهمة ويصدر منه الى مسقط والحجار الذي يكون في قمة النخلة هو لذيذ وطعمه يقرب من طعم الكستناء [الشاهبلوط] ولكن يمنع قطعه لانه يودي الى موت النخلة. ويستخرج من نواة التمر زيت يفيد للانارة. واذا جرش النوى يصبح طعاماً للابل. ويستعمل سعف النخيل لصنع الابواب والشبابيك والاسرة والكراسي والسلال والمراوح والمكانس. اما جذع النخلة فيستعمل كوقود لكنه ينتج دخاناً كثيفاً،كما يستعمل ايضاً للبناء لعدم وجود اخشاب اخرى.

توجد هنا وهناك في الحدائق، وفي مسكن الانكليز بعض اشجار الاثل، لكن العرب يعتبرون هذه الشجرة لا تجلب الفأل الحسن، واظن ان مصدر هذه الشجرة من اطراف الخليج.

اظن اني نسيت ان اتكلم عن مسجد تعلوه مئذنتان شيده الخلفاء، انه واسع البناء لكنه الان في حالة يرثى لها.

يدور الكلام هنا، باهتمام كبير حول حروب الفرس، فان علي مراد يحاصر شيراز حيث تحصن صادق خان فتوقفت القوافل. وقد ابتليت هذه الجهات بالانقسامات الى فئات متعددة، وحاول معظم الحكام اعلان استقلالهم فشنوا الحرب بعضهم على بعض واذا استولى مراد خان على شيراز وتخلص من صادق خان فان سائر الطغاة الصغار سيحاسبونه على المملكة فتتحول بالتاكيد الى مسرح الخراب والحروب المتكررة بصورة مستمرة.

الفصل الرابع عشر

ملاحظة حول تجارة الانكليز في البصرة

تعتمد تجارة الشركة الانكليزية في البصرة على الاقمشة، اذ عليها بموجب قانون تأسيسها ان تجلب كمية معلومة من البالات لاتصل عادة الى تسعمائة سنوياً، وفي كثير من الاحيان تخسر بعض الشيء، ويتم التبادل بالروبيات او بحرير كيلان Ghilan وتكون هذه الطريقة اكثر فائدة.

ان مقيم الشركة في البصرة هو عضو في مجلس بومبي- الهند- ويخضع لتعليمات ذلك المجلس ولاتسير الامور في هذه المكان بلا منغصات، فقبل سنوات استولى العرب سكان الجزائر القريبة من القرنة على اربعة مراكب عائدة لهذه الشركة كما ان الوصي الفارسي كريم خان اثار بعض المشاكل مع الانكليز وفي زمن القلاقل والفتن خسرت الشركة سنوياً اربعين الف جنيه استرليني.

لكن موظفي الشركة يسفيدون لانفسهم في كل الاحوال، كما ان المعتمد الرئيسي يستفيد عادة فائدة كبيرة في سنوات قليلة من خلال تجارته الخاصة والطلبيات المحددة. ان تجار البنغال يرسلون اموالهم الى البصرة اكانت نقداً ام، الاقمشة الموسلين [الموصلية] ومن هنا ترسل هذه الاقمشة الى ارجاء اوربا لان التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ممنوعة عليهم...

تجارة الفرنسيين وغيرهم

للفرنسيين قنصل في البصرة، لكن التجارة الفرنسية غير واسعة وتقتصر على بعض الاقمشة التي توردها من حلب عبر البادية.

اما اعمال الهولنديين فتشمل: السكر والقهوة والتوابل التي كانوا يجلبونها من بتافيا[1]

---

[1] ـ انها جزيرة جاوة اذ تشتهر بانتاج القهوة والسكر .

Batavia وكانوا يربحون قبل ان يخسروا جزيرة خارك بعد ان طردهم منها الفرس سنة 1769، انهم يتفاوضون الان مع كريم خان بصفته الوصي ليستفيدوا من جزيرة خارك ويستعيدوا كل ما سلب منهم ولقد استقبلهم كريم خان احسن استقبال ووعدهم باعادة كل شيء حالاً بعد ان يعودوا ويستقروا لكن الحرب نشبت من جديد بين الفرس والترك وعندئذ تخلى الهولانديون عن التجارة في الخليج.

اما بيت جلبي القائم في سورات فهو يعمل منذ اكثر من قرنين في ميدان التجارة في سائر ارجاء الخليج واقدم سفينة عائدة لهذا البيت ارسلوها الى البصرة ترجع الى اكثر من منه سنة، ولا يزال هذا الخط قائماً، وسفينتهم مبنية بخشب التبك المتين الذي يقاوم الرطوبة والحرارة.

اما التجار الاتراك وبالاحرى : العرب والارمن واليهود فيجرون معاملاتهم مع هذا البيت الذي له ممثل معتمد في البصرة، كما يتعاملون مع السفن الانكليزية التي تبحر الى سورات وبومبي وتليشري ومداراس والبنغال كما يتعاملون مع كوشين طريق السفن الهندية او بسفنهم الخاصة.

ترسل كميات كبيرة من تمور البصرة الى ساحل الملبار [في الهند] والى ايران والى سواحل الخليج حتى مسقط، اما الاصناف النادرة من التمور فلا ترسل منها الاكميات قليلة، منذ حرب الروس، التي على اثرها توقف الابحار من الاسكندرية فان «مخا» بدأت ترسل كميات كبيرة من البن الى البصرة ومن هنا ترسل الى حلب ومن هناك توزع في ارجاء الدولة العثمانية.

للشركة الانكليزية العاملة في الشرق امتياز التجارة في البصرة وكذلك لها نفس الامتياز للعمل في الهند. ففي الاولى لها الحق بموجب وثيقة الامتياز التي تخولها التجارة المنحصرة في كل الدولة العثمانية والبصرة هي جزء منها، اما في الهند فيمتد امتيازها للتجارة في بلاد فارس كلها وبلاد العرب والهند وحتى حلب عن طريق رأس الرجاء الصالح.

هذا كل ما استطعت الاطلاع عليه والتأكد منه حول البصرة وتجارتها.

بيان الرحلة الاسيوية

ت	المدن	ساعات السير
1	من طوقان الى سيواس	18
2	من سيواس الى قبان	50
3	من قبان الى اركان	25
4	من اركان الى دياربكر	12
5	من دياربكر الى ماردين	14
6	من ماردين الى نصيبين	12
7	من نصيبين الى الجزيرة	22
8	من الجزيرة الى الموصل	39
		المجموع 214

المسافات

ت	المدن	المسافة بـــالفرسخ
1	من الموصل الى بغداد في دجلة	100
2	من بغداد الى القرنة	130
3	من القرنة الى البصرة	20
4	من القرنة الى الخليج	30

الوقت عن طريق القافلة

ت	المدن	الوقت باليوم
1	من الموصل الى بغداد عن طريق البر	11
2	من بغداد الى حلب [اما البريد فيقطع هذه المسافة بعشرة ايام]	20
3	من حلب الى البصرة عن طريق البادية الكبرى [اما البريد فيقطع هذه المسافة خمسة عشر يوماً	30 ـ 40

انتهت الرحلة من القسطنطينية الى البصرة

رحلة العودة

من البصرة الى القسطنطينية

في نهر الفرات

عن طريق بغداد ـ حلب ـ قبرص

سنة 1782

للاكاديمي سيستيني

مقدمة المؤلف

كما كان مرور السيد سليفان بالقسطنطينية سبباً لشروعي بهذه الرحلة الى البصرة، هكذا كان السيد هنجمان Henchman الذي التقيته في البصرة سبباً للعودة الى القسطنطينية، وقد كان راجعاً من البنغال ونيته التوجه الى اوربا عن طريق حلب.

هناك طريقان للوصول الى حلب:

1ـ طريق البادية الكبرى

2 ـ طريق بغداد وقد فضلنا هذا الطريق.

نستقل قارباً من قوارب البريد يصعد في الفرات من البصرة الى الحلة. ويستغرق هذا السفر عشرة الى اثني عشر يوماً لكن هذا الطريق ليس مسلوكاً دائماً لان القبائل العربية المخيمة على ضفاف الفرات ما ان تسخط لامر ما حتى توقف المسافرين لكن عندما تكون على وفاق مع الوالي ومع بعضها البعض عندئذ يمكن سلوك هذا الطريق من دون خطر، والحقيقة ان هذا الطريق اكثر ترويحاً للنفس من طريق الصحراء.

لقد مررنا بصعوبات جمة غير متوقعة في رحلتنا هذه، وانا لا اتمناها للأخرين. ولقد اعددت مفكرة يومية دقيقة لملاحتنا من البصرة الى الحلة.

ثم يتوجه المسافر من الحلة الى بغداد عن طريق البر خلال اربعة ايام قاطعاً ارض بين النهرين، وهناك اماكن للاستراحة بين مرحلة واخرى على طول الطريق.

عندما وصلنا الى بغداد وجدنا فيها السيد كامبل Campbell وهو احد الضباط العاملين في خدمة الشركة الانكليزية وقد وصل تواً بصحبة الططر[1] هذا اللقاء ادى بنا ان نهمل تخطيطنا الاول بقطع البادية الصغيرة فنستفيد من عودة الططر الى حلب، فقد اخبرنا السيد كامبل بانه قطع الطريق بصحبة الططر من

---

[1] ـ الططر : التتر التتار، التاتار: حامل البريد بسرعة من بلد الى اخر سمي بذلك لان القائمين بهذه الخدمة كانوا قديماً من التتر . الجلبي : كلمات فارسية ، ص 138 .

حلب الى بغداد باثني عشر يوماً دون ان يلقيا معاكسات. وسنرى لاحقاً باننا لم نكن موفقين مثلهما اذ صادفتنا المشاكل في كل خطوة فالباشوات من جهـــة والاعـــراب والاكراد من جهة اخرى اذ كانوا كلهم في خصام مستمر ولم نستطع ان نصل الى حلب الابعد ستة ايام وزيادة[1] ولزيادة تعاستنا فقد ابتلينا بحبة حلب[2].

اسرع السيد هنجمان بالانتقال الى جزيرة قبرص معللاً النفس بالعثور هنـــاك على سفينة عائدة الى ليفورنو، اذ كانت تدعوه الى هناك اعمال مهمة، لكنه لم يكن قد انتهى من المضايقات فهو اذ بارح البنغال خطط ان يصل الى ايطاليا في ثلاثـــة اشهر او اربعة في الاكثر لكنه لم يصل الا في نهاية السنة.

اردت ان انتقل من حلب الى اسطنبول لكن الطرق لم تكن مأمونـــة، ولـــذلك تحولت الى اللاذقية ومنها الى جزيرة قبرص فالتقيت هناك من جديد بالسيد هنجمان وقد اصيب بالحمى. ولا اثر لاية سفينة تقله الـــى ليفورنـــو [ايطاليـــا] فدعوتـــه لمرافقتي الى الاسكندرية فيعود منها الى اوربا بينما اتوجه انا الى اسطنبول التـــي وصلتها بعد سنة من مبارحتي البصرة!

---

[1] ـــ اظنه يريد ان يقول 16 يوماً .

[2] ـــ يقال لها حبة الشرق . ذاك الالتهاب الجلدي الذي كان يصيب جلد الانسان اكان في وجهه ام في ذراعيه ويعرف باسم " الاخت " .

العودة من البصرة الى اسطنبول في نهر الفرات

بغداد ـ حلب ـ قبرص ـ الاسكندرية

الفصل الاول

الرحيل من البصرة والوصول الى الحلة

ها قد مضت اليوم 28 ايلول 1781 سبع سنوات منذ ان بارحت البيت الوالدي وركبت السفينة في نهر ارنو[1] وهو نهر صغير بالمقارنة بشط العرب Sciat – El – Hlarab مياه الارنو الهادئة حملتني بلطف الى مدينة بيزا[2] ثم الى ارجاء الشرق، والان ها انا امخر الفرات صاعداً بقوة المجاذيف لاصل الى الحلة، وانا غريب بين اقوام غريبة في الصحراء.

كانت الحمى التي اصابتني قبل ايام لاتزال متسلطة علي ولم تتركني في هذا المناخ الحار السائد في البصرة، وقالوا لي: ان شفاءك سيتم بالتاكيد في نهر الفرات اذ ان ماءه يحتوي على النترات التي ستكون افضل دواء لك.

رحلنا في الساعة العاشرة صباحاً في قارب السيد لاتوش الذي شاء ان يرافقنا، وفي مؤخرة القارب الخاص بصديقنا لاتوش توجد ستارة تقينا من اشعة الشمس وهذا شيء حسن في البصرة لان الباب العالي مثلاً لا يسمح مثل ذلك في اسطنبول. فالسيد دي فريول السفير الفرسي في اسطنبول اراد ان يكون له مثل ذلك طلباً للراحة، لكنه اجبر منذ اليوم الاول ان يتخلى عنه وان يهمل استعمال قاربه المغطى. فنزلاء البصرة يتمتعون ببعض الامتيازات التي يتمناها الوزراء في اسطنبول. والحقيقة فان قايغ[3] Kaik المتسلم هنا في البصرة هو مغطى لان المناخ هنا محرق بكل معنى الكلمة ومن الصعب على الانسان تحمله من دون ستارة خاصة عندما يعكس الماء اشعة الشمس.

---

[1] – من انهار ايطاليا تقع عليه مدينة فلورنسا ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

[2] ــ مدينة ايطاليا اشتهرت ببرج كنيستها المائل .

[3] ــ من انواع السفن المستوية القاع .

مررنا وقت الظهيرة امام بناء قديم جداً منهار واننا لنجد الكثير من امثال هذا البناء المتهدم كما راينا على طول الشاطئ من البصرة حتى القرنة تلك السياجات المدورة المصنوعة من القصب او من سعف النخل وذلك لصيد السمك فالمد يرفع الماء من جهة شاطيء العرب ويستمر ويمتد طويلاً فيرمي الصيادون على وجه الماء عجينة مصنوعة من الطحين والدهن او من مرارة الثور او الخروف مخلوطة بالزهر (زهار؟) Zahar وهو مشروب يسكر السمك بحيث انها اذ دخلت في تلك المساحات المدورة المسيجة تبقى فيها شبه مائتة عند الجزر.

تركنا السيد لاتوش بعد قناة ستيبان Stiban التي تشكل جزيرة واسعة يسكنها عرب من عشيرة كعب Kub والجزيرة مليئة بالنخيل وهي خصبة جداً فتنتج الرز بكميات كبيرة.

ركبنا في القارب فبدأ الرجال بسحبه الى ان حل المساء فامضينا الليل امام قرية اسمها نار عمر Nar – Omer كان معنا ستة رجال لسحب القارب يتناوبون الدور كل ثلاثة منهم، ويطلق على هذا التناوب او التوقف اسم « يدك» Jedeck وتحسب المسافات على عدد هذه التوقفات ويتعب هولاء الرجال الذين يقومون بعملية سحب القارب كثيراً لانهم يكونون معظم الوقت في الماء او في الطين ويبلغ عدد الوقفات بين البصرة والحلة 80 محطة اي ما يساوي 120 فرسخاً.

وجدنا بعد مسافة موضعاً تقوم عليه قرية الدير Der وهناك مسجد ومنارة بلا باب ولا حوض في اعلاها ويقول العرب ان هذا المسجد حملته الملائكة الى هنا وتسكنه ارواح تائهه وهناك ايضاً قرية اخرى اضطر سكانها الى الجلاء عنها. وبعد الدير توجد قرية للعرب الزيدين Jesides ثم بعد مسافة اخرى تقوم على الضفة الاخرى قلعة « سويب» Sueb وهي بيد الفرس.

نحو الساعة الرابعة من 29 ايلول عبرنا نقطة بدء ارض بين النهرين اي القرنة فالقينا عليها التحية برشقات من بنادقنا لكي يعلموا بان قاربنا هو قارب البريد واننا نحمل بضائع تجارية، وبمعنى اخر اننا لا نخضع لدفع ضريبة المرور.

تقع هذه المدينة ــ اي القرنة ــ على بعد خمسة عشر ميلاً من البصرة ولهذه المدينة وما يجاورها منظر لطيف من هذه الزاوية اكثر مما من جهة نهر

دجلة. ورغم جمال المنطقة فانني لا ارى فيها جنة عدن، اذ كل ما هناك عدد من النخيل واشجار التوت. وكانت ضفاف النهر من الجهتين عامرة بالنخيل قبل نشوب الحروب بين العثمانيين والفرس لكن تلك الحروب قضت على معظمها. بعض الضفاف واطئة ويستمر الهبوط بعد الدخول الفرات فيضطر الرجال عندئذ ان يسحبوا القارب من مسافة بعيدة جداً.

يكثر هنا القصب ويتاجر الناس به فيصنعون منه الحصران [البواري] التي تباع في اسواق البصرة وتستعمل للتسقيف : كما ان خيام بعض اعراب الصحراء مصنوعة من هذه الحصران ايضاً. ويصنعون منها ايضاً قوراب طولية تحمل نفراً واحداً اما القصبة المتينة فتستعمل كمجذاف. نهر الفرات هنا عريض ومهيب وتكثر فيه عصافير الماء وخاصة مالك الخزين herons ثم مررنا بقرية يقال لها. ضفة اليهود اذ يسكن هناك منذ زمن سحيق في القدم عدد من اليهود ومن المحتمل ان احدى العشائر اليهودية بقيت ساكنة هنا حيث عاش اجدادها. بعد اكمة المنصورية تجد جدولاً يتصل بدجلة ويصب قرب العمارة فعبرنا نحو الساعة التاسعة مساء. وكان ذلك النهار حاراً جداً ورغم ان الريح كانت شمال شرقية.

رأينا الضفاف مزروعة بالذرة، والسكان واقفين يحرسون زروعهم من العضافير ومن الحيوانات البرية. كانوا جالسين على كوم من القصب اعلى قليلاً من الذرة او الدخن ويصدرون من وقت الى اخر صراخات عالية او يضربون بقوة على قطعة من خشب ليبعدوا هولاء المخربين هولاء الحراس يشبهون اولاد الشمس [خيال المائة] ويعرضون انفسهم للشمس من الصباح الى المساء من دون اي سقف يقيهم الحر.

يبدأ الفرات هنا بالدوران، لكنه يحافظ على هيبته، وهو عامر بالاسماك، فترى سمك القطان يقفز عاليا خارج الماء بضجيج كبير.

عند ابو الكلبين Bu – El – Celebin يكون الماء جزيرة مغطاة بحقول الذرة والباقلاء ويشاهد على احد الاضرحة.

وعند فللي Felli وهي قرية محاطة بالنخيل نجد قناة اتصال بين الفرات ودجلة هذه القرى الثلاث تخضع للسلطة التركية تحت ادارة شيخ عربي ويعمل السكان في صنع الحصران ونسج الصوف لصنع العباءات.

كلمة عن النساء

تلبس النساء هنا ثوبا ازرق اللون وفوقه عباءة. وكوفية تغطي الرأس وقسماً من الوجه وتتدلى الى الوراء وعندما لا يضعن هذا المنديل فان شعر رؤوسهن المبعثر يشبه عندئذ رؤوس «الميدوزة»[1] Meduse وتتدلى حلقة كبيرة من مناخيرهن او من شفاهن وهذه عادة قديمة جداً اذ نقرأ في الكتاب المقدس : «... ولذلك اضع حلقة في انفك»[2] لون بشرتهن سوداء او زيتونية ولهن افواه واسعة وشفاه غليظة وعيون لماعة، واسنان تالفة، وقامة قصيرة وبدينة. وينحصر حليهن كله بعدد قليل من الاساور، وحلقات في السيقان[3]، ورسوم غريبة مطبوعة على الجلد[4]

التقينا في كمرك « كبوت المعمر» بعربي كبير بالسن كان يتكلم الانكليزية والبرتغالية. عند الظهر مررنا امام الزنوجة EL-Zenauja وهو الموضع الذي قام فيه اهل المنتفك والاتراك باغراق مواضع الفرس في الحرب الاخيرة، فالموضع واطيء وعمل الاتراك على كسر السدود التي كانت توقف مياه الفرات.

العرجة

وفي الساعة الرابعة وصلنا الى العرجة التي هي في ظني « اكراني» Agrani القديمة التي ذكرها بليني وكانت مدينة كبيرة وقد دمرها الفرس. انها اليوم

---

[1] ــ شخصية يونانية خرافية قادرة على تحويل من تنظر اليه الى حجر . كانت جميلة جداً ولها شعر رائع وحدث ان تخاصمت مع غريمتها مينرفا فمسختها وحولت خصلات شعرها الى افاعي ، ولهذا يقال عن المرأة التي لاتعتني بشعرها وتتركه على الطبيعة بانه شعر ميدوزة .

[2] ــ اشعيا 37: 29 .

[3] ــ يريد الحجول وهي زينة نسائية معروفة .

[4] ــ يريد الوشم كما في الهامش 119 .

بلدة كبيرة محاطة باسوار عليها شرفات تمتد على طول النهر. وهناك بساتين كثيرة في اطرافها. ويبنون فيها قوارب. ويسكن فيها شيخ عرب المنتفك، وهذه هي اكبر القبائل العربية وكثيراً ما تتشابك بالحرب مع بواشية بغداد.

وكانت لنا صعوبات مع رجال الكمرك، وبما ان هذه البلدة مستقلة فهي لا تلتفت الى الفراميل الصادرة من الحكومات التركية؛ وعوض عن دفع الرسوم ابدلناها بهداية. والغريب حقاً تصرفهم وملاحظة طريقة وقوفهم وتكشيرهم من اجل الحصول على المزيد من المال الذي ارتأينا ان نعطيهم. فكانوا تارة يرمون المال على الارض ثم يتناولونه ويتظاهرون بانهم يريدون قذفه في النهر تارة اخرى فيمنعهم اصحابهم الاخرون؛ وارادوا فتح اغراضنا وان ندفع عن القناني الفارغة وكأنها ممتلئة، ومشاكل اخرى ولم تكن طلباتهم باطلة كلياً لان خدامنا الارمن دسوا بين اغراضنا بعض الاشياء التي تخضع للرسوم - دون علمنا - وقد عثر عليها موظفوالكمرك. وما خلصنا من هذه المشكلة غير كوننا افرنجاً واننا نسافر في قارب البريد، فدفعنا الهدية وهي عبارة عن ستة قروش ونصف استمرت الحرارة العالية، واستمر الريح الهادي، وكانت ضفاف النهر لطيفة للنظر بما عليها من زروع وتتخللها بعض القرى التي تمنح جمالاً اخاذاً.

في اليوم التالي3 تشرين الاول رحلنا كالعادة مع شروق الشمس فوجدنا قناة تنطلق من واسط فتشق ارض بين النهرين، ومررنا باراض مزروعة بكميات كبيرة من الذرة.

وظهرت جماعة من العرب على عدوة النهر فالقت بنفسها في النهر متوجهة الى قاربنا لتطلب منا التتن والتمر فلبينا طلبهم وبذلك اصبحنا بالنسبة اليهم احسن الاصدقاء في الدنيا. وكان معظمهم يتكلمون لهجة تختلف عن العربية التي نسمعها؛ انهم يتكلمون بلهجة خاصة باعراب الصحراء. وقد حذرنا هولاء باننا سنلقى بعض الاخطار اذا اكملنا تقدمنا في النهر وحدنا، والافضل لنا ان نسافر مع قاربين آخرين محملين بالتمور

فنسير معهما. وبدأت ضفاف النهر هنا اكثر ارتفاعاً، ومجرى النهر تعرجاً ودوراناً.اصطدنا في هذا اليوم حدأتين Milans وقام الملاحون بشيهما دون نتف

ريشهما واكلوها لحماً وريشاً. ووجدنا في طريقنا اعداداً من البجع والحجل وهي الطيور التي وجدها العبرانيون في البرية كما هو وارد في الكتاب المقدس[1]. ولا تزال تعرف باسمها العبري Chetaa[2].

وهنا كانت نهاية منظر القرى والزروع اذ بدأت ارض صحراوية قاحلة. وهنا وصلنا الى القاربين اللذان مر الكلام عنهما فطلب النوتيون ان ندفع لهم مبلغاً لقاء حمايتهم لنا بينما كانوا بالاحرى بحاجة الى الحماية فرفضنا عرضهم غير المعقول. وكان رئيس ملاحينا يتمنى ان نكمل الرحلة بصحبتهما. اي بصحبة القاربين ليريح طاقم المجدفين، لكننا اجبرناه على المضي في رحلتنا.

عند المساء وبينما كنا في سكون عميق، اذ بستة رجال من عشيرة «العبس» Labes يظهرون عند ضفاف النهر وسألونا مستفسرين عن اخبار القاربين واوصونا ان نحذر منهما. فاعطيناهم قليلاً من الخبز والتمر، وعملاً بنصيحتهم دعونا واحداً منهم للصعود الى قاربنا فيرشدنا الى السبل الصحيحة بحيث لا نلتقي باولئك الناس.

صباح اليوم الخامس من الشهر رأينا عدداً كبيراً من خيام العرب على ضفة النهر جهة ما بين النهرين، وكان عندهم قطعان الجاموس، وبقدر ما كنا نقترب من الضفة كان علينا ان نرمي لهم تمراً واحياناً التبغ ايضاً للاشخاص الذين كانوا يلحون بالطلب.وقرب الظهيرة مررنا امام قلعة شيدها الاتراك من اجل ان يسكن فيها العرب، لكن هؤلاء اهملوها لابل هدموها.

وعند منتصف الليل وصلنا الى محطة زريجية Zeregie حيث وجدنا عدداً من القوارب القادمة من سماوة Semaon. واعتقد عرب المنطقة باننا نيام فنزلوا الى الماء واقتربوا سباحة من قاربنا، لكننا كنا منتبهين لحسن الحظ فابعدناهم ببعض طلقات من مسدس.

هنا يصنعون القوارب. ورأينا على ضفتي النهر خنادق ومدافع لان هذه المدينة عليها ان تدافع عن نفسها ضد هجوم الاعراب.

---

[1] - يرد في الكتاب المقدس اسم السلوى (سفر الخروج 16: 8: و 13).

[2] - اظنه يشير الى القطا الطائر المعروف .

رأينا غابات كثيفة من النخيل وبساتين واسعة مزروعة بقصب السكر، والتبغ والبطيخ والتوت. ويستخرجون من هذه الاماكن ملح البارود Salpetre فيحمل الى البصرة والى الحلة وهناك يصنعون منه البارود.

يدير اليهود كمرك زريجية، وقد جاء رئيسهم يتبعه اربعة او خمسة لرؤيتنا اولاً وللحصول على هدية فرفضنا عندئذ قالوا ان من واجبهم منع المجدفين من تسيير القارب، ولهذا رأينا ان نمنحهم شيئاً لنخلص انفسنا من الحاحهم فاعطيناهم قصبات بنادقنا.

المعدان

كانت ضفاف النهر عالية من الجهتين عند السماوة. وبدأت تنخفض في هذا الموقع : وكانت الاراضي هنا حسنة للرعي لكثرة العشب والاهوار تغطي الارض على مد البصر، وقد خيم هناك العرب من عشيرة المعدان واذا كان جل اهتمامهم ينصب على تربية الجاموس اكثر من الحيوانات الاخرى، فانهم يجدون هنا العلف الضروري الذي يقدمونة لهذه الحيوانات.

هناك جداول كثيرة متفرعة من النهر تمتد في الحقول الواسعة لتسقيها. ويكثر هنا القصب الخاص لصنع الحصران [البواري] فهي تنمو هنا بكثرة وتغطي اكواخهم المسيجة بهذا القصب نفسه.

كان للعرب المعدان اماكن كثيرة للسكنى لمسافات طويلة بمحاذاة النهر، والحقيقة ان هؤلاء الناس لم يزعجونا بل تركونا نمر من دون ان يطلبوا منا شيئاً. وكان شيخهم غائباً لان والي بغداد كان قد دعاه. هذه القبيلة كثيرة العدد وتحتل مساحة كبيرة من البلاد، وهي اليوم خاضعة للولاة بعد ان حاربوها وقهروها مراراً ووضعوا عليها غرامات. ورغم ذلك فهي من اغنى العشائر لامتلاكها قطعان كثيرة من الحيوانات، ولزراعتها الرز الذي يطلب الاتراك منه كميات كبيرة.

اكواخهم مقامة من القصب المحني اعلاه على شكل قوس ثم يغطى بالحصران، وهي اكواخ طويلة وضيقة. ولكل عائلة سياج وحديقة خاصة بها يمر بها ماء النهر مباشرة او بقنوات فيسقيها بسهولة. ولهم قوارب ومشاحيف يسيروا

بها في الفرات، لكنهم لايستخدمون قواربهم الا لنقل الاغراض، وإلا فأنهم يجيدون السبح كالسمك وهم لايستعملون الزق للعوم كما يفعل من يسبح في نهر دجلة، وان شاؤا فانهم ياخذون حزمة من القصب ويضعونها تحتهم لتساعدهم على السبح كما يفعل السباحون في دجلة بالزق، وهم يضعون كذلك البستهم واسلحتهم على رؤوسهم عندما يسبحون. وكل حيواناتهم تعبر النهر سباحة: الجواميس والابقار والخيول والحمير والجمال والماعز، فالطبيعة في كل محل تحفز الغريزة للتأقلم مع البيئة المحلية.

اصيب اثنان من ملاحينا بالحمى، واردنا ان نستعين برجال اخرين من اهل سبية سبيجة sebeje وهي قرية كبيرة تجارية واقعة على الجانب الايسر، لكننا لم نجد ضالتنا، فاضطررنا ان نكمل طريقنا ببطء ونحن حزانى.

في هذا المكان كنا شهود عيان لنزاع حتى العظم بين عائلتين: كانت الواحدة على هذا الجانب من النهر والاخرى على الجانب الاخر، وكانت ثيران احدى الضفتين قد عبرت النهر سباحة فدخلت في حقل رز فقام اصحاب الحقل فضربوا الرعاة فنشب القتال الذي نجم عنه موت اربعة رجال وجرح اخرين. وكانت النساء بصراخهن وعويلهن وضرب ايديهن يخلقن ضجيجاً اكثر من ضوضاء المقاتلين في ساحة الوغى. ثم نقلت النساء الموتى والجرحى ودخلوا الى الاكواخ وسدوا الابواب. اما نحن فقد حاولنا اثناء هذا القتال ان نبقى في وسط النهر.

يذكر السيد ايفز Ives في رحلته بانه عند مروره بهذا المكان في شهر ايار، تعذب كثيراً من هجوم الذباب الصغير، اما نحن فقد هجم علينا جيش من الذباب الكبير فاستولى على قاربنا. وعند المساء بارحنا منطقة المعدان.

ينقسم النهر هنا الى فرعين ويمكن السير بالقوارب في كليهما، وفيهما عدد من الجزر. وكانت اكبر الجزر تسمى لملوم Lemlum وقد مررنا بعدد كبير من القوارب الصغيرة التي كانت محملة بالرقي الذي يسوق في مناطق المعدان. وجزيرة لملوم تنتج الرز بكثرة، وعلى اصحاب الحقول ان يداوموا على حراستها لابعاد الخنازير البرية عنها. وقد سميت هذه الجزيرة لملوم على اسم قرية كبيرة كانت قائمة على اليابسة وكانت بيوتها مشيدة بالطابوق والطين، لكنها لم تعد مأهولة

منذ نشوب الحرب بين العرب والاتراك. وكان في تلك البلـــدة ســـوق وحمامـــات ومساجد آلت كلها الى الخراب. لكن قبر الحسين تمت المحافظة عليه، وعلى الضفة الاخرى توجد قبور كثيرة لعدد من رجال العلم من العرب سقطوا في تلك الحـــرب التي جرت معاركها الدموية قرب لملوم. وهذا الاسم يعني القبور. اما بعد لملوم فلا نرى غير الصحاري الجرداء ومن وقت الى اخر نلقى بعض الخيام.

حاول احد القوارب الذي يحمل خمسة لصوص او ستة ان يحاذينا بحجة طلب بعض التمر، وكانت طريقة تكرارهم للتحية : "السلام عليكم" خلقت في نفوسنا الشك والريبة في نياتهم فابتعدنا عنهم.لا بل هددناهم باســتعمال الـــسلاح. وكـــان علـــى الضفاف جماعة كبيرة تقدر بمائتي نفس من رجال ونساء واطفال ينتظرون على ما يظهر مدى نجاح مبادرة اصحابهم الذين كانوا في القارب. لم يكن لهم اسلحة نارية، بل كان عندهم رماح اوهراوات[1]. وعندما رأونا نبتعد عنهم طلبوا منـــا ان يعبـــروا معنا الى الضفة الثانية وفي نيتهم الاستيلاء على قاربنا، فلما رفضنا بداوا يصرخون صراخاً يصم الاذان، فوقفنا واسلحتنا بايدينا مهددين اياهم عندئذ خاقوا منا وسكنوا. لكن ذلك القارب بقي يتبعنا حتى حلول الليل، واقترب منا كثيراً وانطلقت منه طلقة نارية من البندقية الوحيدة التي كانت بحوزتهم فردينا عليهم بكل اســـلحتنا، عندئـــذ هجم كل العرب هجمة واحدة فاسرع رجالنا الذين كانوا يـــسحبون قاربنـــا برمـــي انفسهم للوصول الى القارب فابتعدنا من جانب بين النهرين الـــى الجانـــب الاخـــر فصرنا خارج سيطراتهم ولم نعد نسمع اصواتهم.

الديوانية

في اليوم العاشر، وقبل ان نصل الى «الديوانية» Divanie كانت سرعة تيار الماء قوية بحيث اجبرتنا على التوقف لاننا لم نعد نقدر ان نتقدم صعوداً الا بعد ان استعنا باربعة وعشرين رجلاً ارسلنا في طلبهم من الديوانية.

هنا يوجد قلعة ومدفع، وقد اقام هذه القلعة والي بغداد على سد ليضيق مجرى النهر فتزداد قوة تياره، لان من مناورات الحرب المألوفة في هذه الديار هي العمل

---

[1]- اظنه يشير الى المكوار سلاح عرب الجنوب قديماً .

على رفع مستوى الماء اي اغراق الاراضي، وقد استعمل بكات مصر مراراً هذه الطرق اكان للدفاع ام للهجوم.

امضينا نهاراً وليلاً في الديوانية. وكان «رئيس» القارب قد جلب معه كمية من التمر وبضائع اخرى معدة للبيع كان خبأها في قاربنا، ومن اجل اقناعنا باطالة مدة بقائنا هنا تحدث عن الاخطار التي تنتظرنا. لكن قاربين قدما من الحلة فقال لنا ركباهما ان لاشيء خطر في الطريق فاطمأنت نفوسنا. لكن اخذنا اربعة ملاحين عرب من المنطقة من باب الحيطة لكي نسرع اولاً ثم لان التعب كان قد نال الرجال الذين كانوا يعملون في قاربنا واستولى عليهم المرض.

الديوانية بلدة كبيرة وهي مركز مقاطعة «هسكة» Hasuiekie وتقع على جانب النهر الايمن. بيوتها مشيدة بالطين، ولباشا بغداد فيها حامية. وينسجون هنا قماشاً لصنع عباءات العرب ويستخدمون قشور الرمان لصبغها باللون الاسود، والمال هنا وفير ولذلك فالتجارة قائمة.

بارحنا الديوانية منذ مطلع النهار مع ثلاثة قوارب اخرى. ركب القارب الاول تجار اتراك، والقاربان الاخران فارغان. وكان النهر عريضاً يجري بابهة وجلال في ارض قاحلة، وقد شاهدنا هنا وهناك على ضفاف النهر اشجار الاثل. وتظهر في الافق البعيد على ضفتي النهر بعض خيام العرب من قبيلتي الاقرع Agra والجبور Gibur ويعيش افراد القبيلتين بوفاق.

نحو منتصف النهار اذا بأسر عديدة من عشيرة الاقرع تقترب منا مع خيامها وقطعانها، فطلبوا منا ان نعبرهم الى الضفة الثانية، فنزل التجار الاتراك الى طلبهم اكان عن رغبة ام عن خوف منهم. فاعاروهم القاربين الفارغين، لابل قاربهم ايضاً، عندئذ طلبوا منا ان نضع قاربنا تحت تصرفهم فابينا واعترضنا بقولنا اننا من اتباع باشا بغداد، فلم يلحوا.

هؤلاء الناس ينتظرون مثل هذه الفرصة للانتقال من هذه الضفة الى الاخرى. وعندما تنعدم مثل هذه الفرصة فانهم يستخدمون القفاف وهي عبارة عن سلال مدورة مصنوعة من اغصان الاسل، فيضعون فيها اغراضهم وحيواناتهم الصغيرة ونساءهم رغم ان معظمهن يعبرن النهر سباحة كالرجال، وقد رأيت واحدة تسبح

وتدفع امامها بيدها قفة فيها طفلها الصغير، وكان عدد من الرجال يسبحون وهم ما سكين رماحهم بايديهم. وبعد ان عبروا كلهم اوقفوا ملاحينا وارادوا ان يسرقوهم فصوبنا نحوهم بنادقنا واطلقنا النار عليهم فلاذوا بالفرار.

كانت القوارب الخاصة باصحابنا الاتراك التي استعملها الاعراب للعبور قد عادت ولحقت بنا عند المساء عند ارض مرتفعة تم فيها قتل الفي رجلا من العرب قبل زمن بعيد بيد الاتراك بقيادة الديان باشا[1]. وبعد مسافة قصيرة يقوم مزار يقصده الحجاج وهم في طريقهم الى مكة.

النهر لايزال عريضاً لكنه غير عميق، ويسكن على ضفتيه عرب عشيرة المنصور وهم اغنياء لكثرة الجاموس الذي يملكون. تقوم في وسط النهر جزيرات رملية مزروعة بالخيار، فالناس هنا يستطيبون تناول الخيار والتمر فهذا افضل طعام لهم.

الحلة

امامنا اربع ساعات اوخمس لنصل الى الحلة. وبدأت تظهر امامنا الحقول الخصبة. والقرى والبساتين خاصة على الضفة اليمنى. اما الضفة اليسرى فبقيت صحراوية لا شي فيها اللهم مزار صغير منعزل قال المسلمون الاتقياء انه قبر ايوب ولهذا يحجون اليه سنوياً للتبرك.

ان موقع الحلة مستحب لانها قائمة على ضفتي نهر الفرات، وتتصل العدوتان بجسر من القوارب. نلقى في الحلة بنايتين قديمتين هما من عمل الخلفاء. يسكن المدينة كل من العرب والاتراك والارمن واليهود. والتجارة فيها رائجة فالقوافل تنقل يومياً الى بغداد الرز والحنطة والشعير. وهذه المدينة وما يجاورها تنتج الحرير بكثرة ويصنعون هنا قماشاً للعباءات واحزمة من الصوف، واعنة الخيول واشياء اخرى مفيدة. وفيها محطتان للكمرك: الواحدة عند التوجه في طريق الصحراء والاخرى عند الطريق المؤدي الى بغداد.

---

[1]- دال طبان مصطفى باشا (1111-1114= 1699-31702) وانظر عن هذه المعركة الفراوي : تاريخ العراق بين احتلالين 5: 154 - 155

لقد نزلنا كيفما كان في خان، وطلبنا جياداً لذلك المساء لنكمل الطريق الى بغداد، ولاننا افرنجاً فقد فرضوا علينا مبلغاً اكثر من الثمن المتعارف عليه، لكن المهم اننا حصلنا على ما نريد للسير في قافلتنا الصغيرة.

هناك في الحلة بساتين كثيرة، والخضروات والاعلاف متوفرة، واللحوم والاسماك فاخرة. وتوجد غير بعيد عن هذه المدينة خرائب يقولون عنها انها اثار بابل وبرجها، ولكن هناك عشيرة عرف عنها انها تقطع الطرق وتمنع المسافرين من زيارة تلك الاثار. وحسب تقليد الشرقيين فان الفردوس الارضي كان في هذه الاطراف. ويؤكد العرب بوجود كهف الساحرين هاروت وماروت اللذين ينوه بهما القرآن في تلك البقعة[1]. ويقولون ايضاً انه في موقع كوثى kiusi الذي هو مسقط رأس ابينا ابراهيم الذي رماه نمرود في آتون النار[2].

لايمكن الاستمرار صعوداً في نهر الفرات بعد الحلة بل العودة نزولاً الى البصرة. ولذلك تباع الاخشاب باثمان عالية بينما لم يكلفهم شيئاً سوى اقتطاعه من ضفاف الانهار. وما فوق الحلة فلا تستعمل غير الاكلات التي تعتمد على الغرب.

بلغت تكاليف رحلتنا من البصرة الى الحلة نحو مائتين وعشرين قرشاً خلال ستة عشر يوماً. وكان برفقتنا ثلاثة خدام وستة رجال من العرب، وقد اعددنا زوادتنا في البصرة وكان بالامكان تجديدها بسهولة في الطريق : فالطيور والبيض ودقيق القمح والبصل والفاكهة على انواعها متوفرة في كل مكان. لكن الخشب نادراً جداً ويجب التمون منه في البصرة. وكان لرجالنا العرب تنور على القارب لاعداد الخبز لطعامهم وكنا نستفيد منه نحن ايضاً.

1- سورة البقرة : 102 : سيد محمود القمني : دراسات في الاساطير والديانات . مجلة افاق عربية 7(1982) العدد 9 ،ص45

2- اظنه ينوه بما ورد في سورة الانبياء 67-68

حياتنا اليومية أثناء السفر

اليك ما كانت عليه طريقة عيشنا :

كنا نتناول القهوة في الصباح الباكر. وبعد ساعتين نشرب الشاي بالحليب عندما نحصل عليه. ونتناول الغداء ظهراً وهو عبارة عن قطعة لحم معدة في التنور مع سلاطة معدة من البصل والخيار. اما في المساء فنتناول حساء جيداً مع النبيذ. وكان الاعراب يعدون لهم البلاو (اي الرز) ويأكلونه مع السمك المقدد الذي كان نتناً جداً.

ان اراد احد الاشخاص الاقتصاد بالسفر فباستطاعته ان يرافق بسهولة احد الجوخدارية التابعين للمتسلم او للباشا الذين يذهبون ويعودون مراراً بين البصرة والحلة : وفي هذه الحالة لن يصرف اكثر من ستين قرشاً.

الفصل الثاني

السفر من الحلة والوصول الى بغداد

بارحنا الحلة يوم 14 في الساعة الثالثة (صباحاً) وبعد اربع ساعات من السير المستمر وصلنا الى خان واسع الارجاء لكنه لم يكن تام البناء، وفضلنا ان نقضي ليلتنا في العراء ما بين حميرنا وبغالنا وخيلنا. ولم يقدر السيد هيجمان ان يغمض عينيه من كثرة الضجيج ففضل ان يبتعد عنا قليلاً، وكاد ان يكون ضحية لاحد السراق لو لم ينتبه اليه احد الخدم المسلحين فهرع لمساعدته.

اكملنا سيرنا في 15 و16 قاطعين ارض ما بين النهرين، وكنا نجد خانات في كل مكان، اما الماء فلم يكن صالح للشرب. لذلك انصح المسافرين بهذا الطريق ان يتزودوا بماء الفرات في الحلة قبل السفر.

هذا الدرب مطروق جداً ومن الخطر على المسافر ان يقضي ليلته خارج الخانات : اكان الخطر من الاسود او الحيوانات البرية الاخرى، او الخطر من هجوم العرب، لذا فالخان هو الملجأ الامين للمسافر.

مساء السادس عشر وصلنا الى ضفاف دجلة، وبعد ساعة كنا امام باب بغداد فرأينا اعداداً كبيرة من جنود الوالي وقد خيموا عند النهر وكانوا في طريقهم لتأديب العشائر العربية والكردية واجبارها على دفع الضرائب المستحقة عليها. ثم دخلنا المدينة فذهبنا ونزلنا عند احد الارمن وهو وكيل الشركة الانكليزية في البصرة.

الفصل الثالث

السفر من بغداد والوصول الى كركوك

التقينا في بيت الارمني بالسيد كمبل وهو ضابط انكليزي كان قد وصل من حلب بمعية ساعي البريد «الططر». وكان يستعد للسفر الى البصرة لينتقل منها الى الهند، وقد خطط ان يذهب اولاً الى الحلة يستقل من هناك قارباً في الفرات. فهذا الطريق اقصر واكثر اماناً من طريق دجلة.

اما السيد هيتجمان فقد صمم في اول الامر ان يسافر الى حلب عن طريق البادية، وهو سفر يستغرق عادة خمسة عشر يوماً، ويكون بحراسة العرب وبامرة احد الشيوخ. اما تكاليف زوادتهم ورواتبهم فقد تبلغ الف قرش لابل قد تصل الفا وخمسمائة. لكن الالتقاء بالططر الذي اوصل كمبل حثنا على تغيير طريقنا والسفر بمعيته.

كان اسم هذا الططر «محمد آغا» وكان يعمل في خدمة المحفل الانكليزي، وقد تعهد ان يأخذنا الى حلب متحملاً مختلف النفقات لقاء مبلغ قدره سبعمائة قرشا، اضافة الى مئة قرش كهدية، فاتفقنا على ذلك، وتم توثيق هذه الاتفاقية بعقد رسمي.

وبعد ذلك تزودنا بوثيقة مرور من الوالي. وبامر موجه الى اماكن البريد في حالة ان الططر يتركنا مثلاً او في حالة وفاته. وكانت قافلتنا الصغيرة مكونة من حوذيين يقودان ثلاثة خيول احدهم بلا حمل، وساعي بريد اي رفيق السيد هينجمان وخادمه وانا وحصان اخر للتبديل. فكان مجموعنا سبعة اشخاص وتسعة احصنة، ولا نأخذ زوادة لان سعاة البريد ياكلون في مواقف البريد. وفي تلك المحطات (المواقف) توجد كل الامور الضرورية للمعيشة. لكن الشيء الوحيد الضروري الذي يجب ان نتزود به هو اناء كبير من الجلد يملأ بالماء ويربط الى سرج الحصان. فالماء نادر الوجود في بعض الامكنة خاصة في الصحراء، واذا لم تتخذ مثل هذه الاحتياطات يتعرض المسافر من كل بلد الى خطر العطش.

لم الاحظ في بغداد شيئاً جديداً اكثر مما رأيت في زيارتي السابقة، ولعلي تأكدت من التعايش الحسن بين اليهود والارمن وانهم يتفاهمون جيداً في الاحتكار العام.

زارنا سفير فارسي قادم من شيراز، فقد اراد ان يستقي منا اخبار البصرة وعن حرب مراد خان وصادق خان، وما كان يعرف اي الطرق يأخذ من اجل العودة الى شيراز.

خرجنا من بغداد في 20 تشرين الاول في ساعة غلق الابواب، فعبرنا اوق ميدان ok-meidan وهي ساحة واسعة يتمرن فيها الاتراك على استعمال القوس، وبعده بقليل نجد اثار خندق امر بعمله قلي خان[1] عندما حاصر بغداد.

كان الليل بارداً جداً فاستفدنا من معاطفنا. وبعد سير سبع ساعات توقفنا للمرة الاولى وارتحنا بضع ساعات في العراء. وعند انبلاج الصبح شربنا القهوة واكلنا دجاجاً مشوياً وتمراً وما الى ذلك. ثم استائنفنا السفر بالخيل نفسه، اي لم نبدل مطايانا. والمحطات هي عادة عند كل سبع ساعات.

في ذلك اليوم عبرنا نهر الخالص على جسر من حجر شيده شاه عباس. يصب احد فروع نهر الخالص في دجلة. في تلك الليلة وصل متسلم جديد معين لمدينة كركوك تتبعه حاشية كبيرة، ولم تستطيع القرية ان تزوده بالاكل والعلف كما كان يريد، فاضطر ان يكمل طريقه منزعجاً فلم يذهب الا بعد ان امر بضرب الكهية[2].

في 22 تشرين الاول انطلقنا في منتصف الليل وسرنا كالعادة سبع ساعات حتى وصلنا الى قره تبه ومررنا ببئر يخرجون النفط الذي يشعلونه من اجل الانارة ليلاً اذ يضعون هذا الزيت الاسود في السراج عوضاً عن الزيت [النباتي].

---

[1] العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين 266:5

[2] الكهية او الكهيا (: تركية) من كتخدا (: فارسية) هو الامين والموظف الكبير ، ثم اصبحت تعني الوزير الاول في حكومة الولايات .

لقد كان استعماله لهذا الغرض منذ زمان بعيد يرجع الى عهد سترابون[1]. ثم عبرنــا جسراً فوق نهر كفري، وتتمتع مياه هذا النهر بسمعة عالية بحيــث ان [الــسلطان] مراد الرابع اطال مكوثه على ضفاف هذا النهر لكي يشرب المزيد من مياهه

ان القرية اكسوي Ak-sui [اق صوي؟] يسكنها مسيحيون يهتمون بــالكروم ولذلك فهم يعصرون ثمر الكرم فيصنعون النبيذ فيضعونه في انيــة مــن الطــين المفخور ويسدون فوهاتها بالجير [النوره] ثم يطمرونها في الارض للمحافظة عليها.

في الليلة التالية التقينا بعدد كبير من الجنود الذين طلب والي بغداد نقلهم مــن ديار بكر لاجل ارسالهم لمحاربة الاكراد والعرب، وهذه العساكر اســتولت علــى الجياد الموجودة في طاووق[2] Tavuk فلما بحثنا عن جياد لنا ما وجدنا هناك افضل مما عندنا ورغم ذلك ابدلنا الجياد فوصلنا في 24 منه الــى تسيــسيا Tissessia[3] وهي منيعة ومحل استراحة على بعد نصف فرسخ من كركوك.

وقد حدث امر غير متوقع اجبرنا على البقاء في هذه الضيعة البائسة عدة ايام : فان متسلم كركوك الذي من واجبه ان يرسل كمية كبيرة من المال سنوياً الى باشا بغداد، لم يكتف بالاحتفاظ بهذه الكمية لنفسه بل استولى على خزينة المال الخاصــة بالجيش القادمة من اسطنبول لاجل توزيع الرواتب على الانكــشاريين. وبعــد ان وضع يده على الغنيمة ترك كركوك وانضم الى الاكراد الثائرين، وانتشرالخوف في المنطقة من ان يعود الى كركوك مع حلفائه فينشر الخراب والنهــب فــي المدينــة وضواحيها.

اثناء اقامتنا القسرية في «تسيسيا» فكرنا بالذهاب سراً الى كركوك فخاطرنــا ومضينا، وهي عاصمة اقليم شهرزور التي هي اشور القديمة. وتقع كركوك علــى جبل اصطناعي مستطيل الشكل في وسط ارض منبسطة. وعندما تهطل الامطــار وتسيل من الجبال القريبة تتحول كركوك الى ما يشبه الجزيرة. لقد استولى عليهــا

---

[1] سترابون او سترابو (58 ق.م – 25 ب.م) جغرافي يوناني وضع كتاباً مهماً وصف فيه الاقاليم المعروفة في ذلك الزمن ومنها اشور وبابل .

[2] طاووق وهي داقوقاء كما ذكرنا الحموي في معجم البلدان2:581

[3] اتكون ياترى تسعين المعروفة الى اليوم ؟

نادر شاه بعد اربعة وعشرين يوماً من الحصار[1]. ثم انتقل من هناك الى الموصل حيث كسره الاتراك[2].

يسكن كركوك اكراد من قبيلة كوران Kiuran الذين لهم قلعة اخرى على مسافة غير بعيدة وتقع على مرتفع. وهي منيعه من الصعب اقتحامها.

هذه الارض تنتج كمية كبيرة من الحنطة والشعير، وتكثر فيها الطيور والاثمار فيها كثيرة على اختلاف انواعها، ويهتمون هنا بزراعة القطن وبالحرير وينتجون بعض الاقمشة الخفيفة. ان النساطرة الساكنين في هذه الديار يصنعون نبيذاً فاخراً.

يشيرون في احد الجوامع الى قبر يقولون عنه انه للقديس دنيس والى قديس مسيحي اخر[3] لقد نال الضجر من سعاة البريد (الططر) الذين بمعيتنا من بقائهم الاجباري في تسيسيا، فاتصلوا بمستلم كركوك الجديد والحوا عليه ليسمح لنا باستئناف السفر في البر.

---

[1] حملة نادر شاه على العراق سنة 1145ه في وثيقة سريانية ، ترجمة الاب بطرس حداد ، بين النهرين 1981 ص 91 ، العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين 267:5

[2] العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين 267:5

[3] لم اسمع بمثل هذا الخبر ، مع العلم ان اسم هذا القديس غريب عن التقليد المحلي الشرقي.

الفصل الرابع

السفر من كركوك والوصول الى الموصل

زودنا المتسلم بامر موجه الى «الامير عبد» المخيم في الصحراء على مقربة من الزاب ليقوم بواجب حراستنا، فعمل على تزويدنا بحراس اكراد يرافقوننا الى ذلك المعسكر، فانطلقنا ومررنا بمسافات بعضها عالية واخرى منخفضة، وكانت الارض معظمها طينية او صلصالية. ولما وصلنا الى الزاب عبرناه خوفاً وهكذا دخلنا في معسكر الامير عبد الذي يمتد نحو اربعة فراسخ وله في كل اطرافه حراس. ولقد استقبلنا رجاله واعدلوا لنا عشاء فقدموا لنا القهوة اولاً ثم لحماً مشوياً وخبزاً. وبعد ذلك ذهبنا لمقابلة الامير.

كانت القطعات موزعة على طول الزاب. وقبل ان يخيم الظلام رأينا اسدين لكنهما ابتعدا عندما اقتربنا منهما. وفي نصف الليل وصلنا الى حيث كانت خيمة الامير فنمنا في جوارها منتظرين نهوضه من النوم.

عند الصباح ادخلونا الى خيمته، كان رجلاً جميل الصورة، طويل القامة، ضعيف البنية، متقدماً بالسن، والى جانبيه صبيان. قرأ امر المتسلم فاصدر امره بان تستعد كل القطعان للرحيل، فركب الرجال الخيل في وقت قصير وتقدمهم هو بالذات، وهكذا تحركنا. وكان عدد رجال المقدمة نحو ثلثمائة فارساً.

سرنا في منطقة تكاد تكون كلها صحراوية، بين سلسلتين من الجبال الواطئة، وكانت الارض مكونة من الطلق[1] والاحجار الكلسية والصلصالية. وبعد ساعتين من السير عدنا فالتقينا بالزاب فعبرناه: عبره بعضنا مخاضة واخرون على جسر لا يظهر انه قديم جداً. هناك بعد الجسر قرية يرأسها بك كردي يستوفي الاتاوة من كل القوافل المارة من هناك. هنا ابدلنا خيولنا، واستمر اميرنا بحراستنا مدة ساعتين ثم

---

[1] الطلق حجر براق يتشظى اذا دق صفائح وشظايا ، انظر القاموس المحيط : دوزي : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة د. محمد سعيد النعيمي ، بغداد 1992، 7 : 72

فارقنا تاركاً معنا ستة فرسان لكي يرافقوننا الى اربيل لكن هؤلاء الرجال الذين بقوا معنا لسلامتنا ارادوا ان يفرضوا علينا رأيهم اذ قرروا الا ياخذونا الى اربيل بل الى مخيم كردي اخر يبعد خمسة فراسخ عن اربيل، فرفضنا بقوة عندئذ تركونا ومضوا فاكملنا الطريق وحدنا ولو بشيء من شعور الخوف والقلق.

اربيل

عند حلول الظلام مررنا بقلعة اربيل القائمة على قمة تل اصطناعي في وسط ارض واسعة منبسطة، وهي دائرية الشكل، واسعة المساحة، يحيط بها خندق، وهي بيد الاكراد من عشيرة باجلان Badgilan الذين يسيطرون على الارض الواقعة بين الزابين. وعلى مسافة من الزاب تقوم احدى قراهم حيث توجد بساتين تسقيها مياه الزاب عن طريق جدول. وهناك ينسجون اقمشة قطنية.

اعتقد ان اربيل هذه هي اربيلا القديمة التي سيطر عليها الاسكندر بعد ان غلب داريوس في معركة كانكاميلا Gangamelle، ولما كان هذا الموقع ما هو الا قرية صغيرة، فان المؤرخين اليونان كعادتهم في مغالاتهم، اعطوا لهذه المعركة اسم "معركة اربيلا".

ان "كانكاميلا" موضع المعركة الحاسمة المشهورة من الممكن ان تكون القصبة المسماة انسوفا[1] Ansova [عينسوا؟] الواقعة في الطريق على بعد فرسخ منها، ويسكنها الكلدان الكاثوليك. ويحكمها شيخ كردي. هناك تناولنا العشاء وابدلنا الجياد. وقام الرئيس الكردي بحراستنا مع ستة فرسان. وعند طلوع النهار وصلنا الى ضفاف الزاب الكبير. وينقسم هذا النهر في هذه المنطقة الى جداول عديدة، بينهم جدول واحد عميق. ولقد عبرنا الجداول مخاضة، واضاع جيادنا الخطى الصحيحة فكان علينا ان نضبط اقدامنا الى السرج. وان عبور هذا النهر سيراً يصبح مستحيلاً اذا هطلت الامطار. ويستعمل اليزيدية في هذه الاحوال الاكلاك.

---

[1] اتكون انسوفا او عينسوفا ام بالاحرى عينكاوه البلدة المعروفة المجاورة لاربيل ؟ اما عن معركة كانكاميلا او كوكاميلا فقد كانت بجوار كرمليس على قول الاستاذ حبيب حنونا : تاريخ كرمليس ، ص32

اظن ان الزاب الكبير هو المعروف عند الاقدمين باسم «ليكوس» Lycus والزاب الصغير باسم «كابروس» Caprus. وقد قال سترابون ان اربيل كانت تقع على نهر كابروس، فتكون اربيل في هذه الحالة "جبل النصر" لانة هكذا سماها الاسكندر بعد المعركة.

ابدلنا حراسنا بعد عبور النهر، فاخذنا حرساً من اليزيديين، هؤلاء هم في العادة اكبر سراق للقوافل التي لا يقومون هم بحراستها، لكنهم امناء جداً للقافلة التي يأخذون حراستها على عاتقهم.

كرمليس

بعد سبع ساعات اخرى من السير مررنا بجدول اخر يصب في دجلة، وهو يسقي قرية للكلدان الكاثوليك الذين يتكلمون لغتهم الاصلية اي الكلدانية، وفيها خرائب كنائس عديدة[1]، وحصناً كبيراً لا يزال بحالة جيدة، وهناك يشيرون الى ضريح القديسة بربارة الشهيدة[2]

كان السائح "ايفز" قد حصل على بعض المخطوطات الكلدانية من هذه القرية وقد طبع بعضها في نص رحلته من دون ان يعطي شرحاً وافياً عنها. انها كتب اناجيل قديمة ومواضيع اخرى قليلة الاهمية.

ان نادر شاه الذي عاث فساداً في هذه الاماكن وخربها، الحق ضرراً كبيراً بهذه القرية الكاثوليكية، وهي لم تسترجع نشاطها بعد من هذا الغزو.

ان محطة البريد في هذا المكان حسنة الخدمة، والجياد التي اخذناها من هنا كانت فاخرة ونشيطة. وبعد ساعتين من السير وصلنا الى الموصل، فنزلنا عند رئيس سعاة البريد الذي يسكن في قصر الباشا.

---

[1] حبيب حنونا : تاريخ كرمليس ، بغداد ،1988-

[2] عذراء شهيدة ، اصلها من اسيا الوسطى ، كرمها المسيحيون منذ القرن السابع ويحتفلون بذكراها في 4 كانون الاول من كل سنة .

الفصل الخامس

المكوث في الموصل

ما ان وصلنا الموصل حتى بلغونا بالخبر السار- والعياذ بالله :- ومفاده ان طريق ديار بكر محاصر بمحاربين تابعين الى الكردي تامر Tamir ومعه ويوده ماردين اللذين جمعا مقاتليهم بامر من باشا بغداد لاجبار احدى القبائل العربية على الاعتراف بالرئيس [الآغا] الذي عينه الباشا، بينما كانت هذه العشيرة تفضل رئيساً اخر وكانت مستعدة للدفاع بالقوة عن مطالبها وخياراتها.

لما كان والي بغداد يريد اخضاع العرب الطائيين الساكنين في الصحراء بمحاذاة الزاب الصغير، فقد اتفق مع الكردي تامر الذي اعلن العصيان قبل مدة على الباب العالي، فلبى الدعوة وجمع قواته الى جانب قوات ويوده ماردين فانطلقت عصابات المخربين تعيث في الارض فساداً في المناطق الواقعة بين نصيبين والجزيرة.

وقف الى جانب الطائيين اليزيديون الساكنون في جبال سنجار وعشائر كردية مختلفة. لكن معظم العشائر الاخرى بقيت على الحياد. قيل ان تامر جمع خمسة الاف من الفرسان.

ديرالآباء الدومنكان

لم يكن من الممكن ان نكمل طريقنا خلال مسرح الحرب هذا، واذ اضطررنا للبقاء في الموصل تركنا سكننا عند سعاة البريد وذهبنا للنزول عند المرسلين حيث وجدنا مزيداً من الراحة.

كان اول حديث للاب روفائيل[1]، وهو صديق قديم، انه ظنني قد توفيت فكان يقيم يومياً على حد قوله - قداساً جنائزياً ويرفع الصلاة من اجل راحة نفسي!

[1] انه الاب روفائيل تيركونسكي في الهامش 71

فشكرته جداً عن هذه البادرة الحسنة التي تعبر عن ودّه، لكن قداسه قد راح في الوقت الحاضر هباء لاني لا ازال على قيد الحياة. وقد يفيدني في المستقبل! مهما يكن من امر فهو مفيد سلفاً لخلاصي.

بعد ايام قليلة مر احد سعاة البريد مردداً ما يشاع في بغداد من ان السلطان قد اصدر امراً بالقضاء على قبيلة «طي» ان هي بقيت مصرة في عصيانها. وقبل ان يتسلم تامر هذا الامر معنى في تنفيذه بكل قواه: فقد هجم عليهم وغلبهم وارسل اكياساً مليئة بالرؤوس الى بغداد. واما عن غنائمه الاخرى التي حاز عليها من نصره فهي قطعان من الجمال والماعز والاغنام، وقد جاءت جماعة ثامر الى الموصل تسوق هذه الغنائم لبيعها في السوق باسعار زهيدة.

بصورة عامة، ففي مثل هذه المعارك الدموية، يصعب على المنتصرين بيع غنائهم لانه ما ان تهدأ الاحوال حتى يأتي اصحاب الغنائم الاصليون فيطالبون بقطعاتهم التي يعرفونها جيداً فيستعيدونها بأبخس الاثمان او يستردونها بالقوة.

الطائيون وان خسروا المعركة لكنهم لم يفقدوا العزيمة، لذلك ارسلوا بعض رجالهم ليخطفوا الاشخاص الذين حملوا رؤوس اصحابهم الى بغداد، لكنهم كانوا قد ساروا في طريق اخر، فلم يستطيعوا الا الامساك باحد سعاة البريد القادم من بغداد حاملاً امراً الى باشا الموصل من اجل ان يعد حملة جديدة على قبيلة طي. لكن بعض الرواة يدعون بان الذين قبضوا على ساعي البريد لم يكونوا من عرب طي، بل ان والي الموصل نفسه الذي مارس هذه الخدعة لكي لا يضطر للقيام بهذه الحملة بحجة انه الفرمان لم يصل الى يده.

جدل بين السريان

بينما كان العرب والاكراد يذبحون بعضهم بعضاً في الصحراء، كان قس السريان الكاثوليك يثيرون في الموصل حرباً كلامية حادة لكنها الى الان ولله الحمد – لم تتحول الى حرب دموية وموضوعها مهم جداً بالنسبة اليهم: وهو ان كان على المؤمنين الوقوف ام الجلوس اثناء قراءة الانجيل، وكانت كل الجماعة مدعوة لا بل مجبرة على ابداء الرأي. وكان القس والمرسلون يدعون ويعلمون كل واحد لجماعته ليستعدوا ليوم المعركة [كذا!] وقد دعي اسقف حلب ليكون وسيطاً بين

الطرفين، فقرر ان على الشعب الوقوف اثناء قراءة الانجيل. لكـن هـذا القـرار اصطدم برأي عدد كبير من المقاومين، حتى ارتفعت الحدة بين الطرفين منذ ثلاثـة اشهر بحيث ان كثيرين من الكاثوليك اللاتين [كذا !] عادوا الى الطرف اليونـاني المنشق تاركين الكنيسة الرومانية[1].

ولكي نرفه عن النفس قليلاً من هذه النقاشات المزعجة المثيرة للسخرية والتي ليس من ورائها غير خلق البغضاء فتسبب الاماً حقيقية، لذلك تركنا الدير وخرجنـا على جيادنا للنزهة في بستان الوالي التي تبعد عن المدينة مسافة فرسخ واحد.

انها ارض مسورة واسعة جداً، فيها اكشاك مظللة واحـواض مـاء وكـروم ومزرعة كبيرة لاشجار الفستق، وللباشا هناك بيت جميل جداً.

ان الحرب التي تسبب في كل مكان ارتفاع اسعار السلع لابل تـصبح نـادرة الوجود في الاسواق، كان لها مفعول عكسي هنا في الموصل. فقد كانت المواد في حالة افضل وارخص مما كانت عليه في زيارتي السابقة للمدينة، وما كان يؤخذ من الاكراد كان يباع رخيصاً في الموصل، فقد اكلنا عنباً شهياً كبير الحجم جداً يجلـب من العمادية، والزعرور Azeroles البري موجود هنا وهو طيب الطعـم، وهـذا الاسم هو لشجرة حملها الرومان معهم الى ايطاليا فبقيت تدعى هناك بهـذا الاسـم القريب اللفظ من اسمها الاصلي.

ياكل الفقراء البلوط المشوي الذي يجلب من كردستان، والاجبان التي يعـدها العرب ويضعون فيها السعتر فيعطيها رائحة طيبة. طيور السلوى (السماني) كبيرة الحجم، متوفرة وقد رأينا اسراباً منها تحلق فوقنا في رحلتنا، وعندما تحلق تحـدث ضجيجاً شبيهاً بما يحدثه الحمام عندنا. ولحم السلوى ليس لذيذاً لانه ضعيف لا طعم فيه، لكنه يتحول الى لحم لذيذ فاخر عند الجائعين من امثال شعب موسى[2].

---

[1]– في هذا الخبر الكنسي بعض الضبابية ، فالسائح لم يستوعب اسباب الجـدال اذ لا اظـن ان المسيحيين اختلفوا في مسألة الوقوف اثناء قراءة الانجيل الشريف ، ولعلهم اختلفوا فـي امـور اخرى. وقوله الكاثوليك اللاتين خطأ والصحيح السريان الكاثوليك : وقوله انهم عادوا الى الطرف اليوناني المنشق خطأ اخر والصحيح انهم عادوا الى طائفة السريان الارثوذكس.

[2] –اي اليهود كما ورد في سفر الخروج

لاحظت ان الصبيان يلعبون في الموصل بالدوامة (المصراع). اما الرجال فيتسلون بمصارعة الدراج Francolin كما بتصارع الديوك في انكلترا والسمائي Cailles في الهند[1]. ويظهر ان هذه الالعاب هي عريقة في القدم اذ نجد صورتهم على المسكوكات المضروبة في الدرداني وهي بلدة قديمة في منطقة طروادة.

يصبغون في الموصل انواع الاقمشة والمناديل القطنية. الخشب هنا نادر جداً ولذا لا يشعلون غير الروث اليابس. كل ما يدخل الى المدينة من ابوابها الستة يدفعون عنه ضريبة كمركية، والذين لا يحملون معهم مالاً يتركون شيئاً ما كرهن عند موظف الكمرك فيسترجعونه عند خروجهم من المدينة (بعد ان يؤدوا الضريبة).

حبة حلب [الاخت] معروفة في الموصل، والآم البواسير منتشرة جداً، وينسبون ذلك الى الحجر الحار الذي يجلسون عليه في الحمامات.

تجارة الموصل

تأتي القوافل الى الموصل من تبريز في خمسة وعشرين يوماً فتحمل من هنا الحرير وجلود الحملان التي تولد مائتة لانهم يصنعون منها قبعات او الكبلك (القبلك). ويتسوقون من هنا انسجة قطنية والشال اي الخمار والاقمشة الصوفية الفرنسية الصنع. كما تأتي قوافل اخرى عديدة من اورفا وماردين وآمد ومن القسطنطينية ومن طوقات، وبقدوم هؤلاء كلهم تنتعش التجارة في الموصل.

---

[1] - ان كلمة francolin تشير الى الدراج ، لكني اظن انه يتكلم عن القبج فالمعروف ان العراقيين يتسلون بمصارعة هذا الطير . المعلاف:معجم الحيوان ،ص184

الفصل السادس

السفر من الموصل والوصول الى نصيبين

في الساعة الحادية عشرة من صباح الثامن عشر من تشرين الثاني، رحلنا من الموصل بحراسة فرسان عديدين مع عشرين رجلاً من المشاة، ولم تكن معنا من الذخيرة غير قليل من الخبز والجبن وكذلك شيء من الماء.

كان كل جندي من رجالنا مصحوباً بحمار لحمل اغراضه وزوادته، وكان الماء في قرب صغيرة مربوطة الى بطن الدابة. سرنا نحو ثمان ساعات في اماكن صحراوية قاحلة، وعند حلول الليل رأينا معسكر ثامر عند اقدام جبل صغير، لكن المعسكر كان يحتل مساحة واسعة. وكانت خيمة ثامر في وسط المعسكر وانتشرت حوله على مسافات مختلفة خيام رجال عشيرته مع الخيل والجمال والثيران والحمير والغنم، وكلها موزعة حسب عائديتها قرب خيام العائلات. فيرى واضحاً ان بعضهم يملكون الكثير والبعض الاخر اقل، وهكذا يظهر الفرق بين الاغنياء والفقراء. وكان نزولنا قرب خيمة ويودة ماردين. واذا كان وصولنا في ساعة متأخرة فقد نمنا في الهواء الطلق بعد ان تناولنا عشاء بسيطاً.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، سمعنا اصوات قرع الطبول، فعلمنا ان المعسكر كله كان يستعد للسير: المحاربون منهم وافراد القبيلة. وكان عدد ابناء القبيلة عشرة الاف كردياً واما عدد المحاربين فنحو الفي فارس. وكانت غاية هذه المسيرة الاقتراب من مصدر الماء وذلك بالسير نحو ساعة من الزمن.

كان للقائد ثامر اخت تتبعه حيثما يمضي كفارسة حقيقية ممتطية فرساً جميلة. بينما كانت نساؤه يمتطين بغالاً عليهم قطع سجاد تنتهي بشرابات.

نظام السير

وهذا نظام السير: تكون الاغراض في المقدمة، ثم الخيام، ثم النساء والقطعاة مع رعاتها. ويسير الاولون في طرق مختلفة لكنهم يجتمعون في مكان متفق عليه.

يتبعهم القائد على رأس فرسانه مرتبين بانتظام حسن. اذا القيت نظرة سريعة على هذا الجيش او بالاحرى هذه الامة في مسيرتها فانك ترى منظراً جميلاً جداً، فلا ضجيج ولا انفلات ولا فوضى.

بعد مدة وجدوا مستنفقاً وان كان الماء غير مستساغ خاصة بعد ان اسرع الخيل والجمال الى الشرب منه فعكروا ماءه وجعلوه اكثر كدراً مما كان، لكن رغم ذلك تقدر الوقوف هناك فاسرعوا الى اقامة المقصورة الصغيرة التي يجلس فيها الباشا ليتناول القهوة، وبسرعة فائقة اقيم المخيم كله وانطلقت النساء لملء القرب ولتهتم كل واحدة منهن باعداد غداء ذويها.

لقد رتبنا مجلسنا بالتي افضل خلف خيمة ويودة ماردين. وطلبنا مقابلة الباشا لنعرض عليه ما عندنا من فرامين ليجهزنا بحراس يرافقونا. فمنحنا ما نريد واذن لنا ان ننطلق في الساعة الحادية عشرة ليلاً. ففي تلك الساعة عندما يكون الظلام قد خيم على الارض وساد السكون العميق، مررنا في وسط الخيام وسرنا مع حراسنا في الصحراء التي تؤدي بنا الى نصيبين.

في اليوم التالي مررنا بمنطقة سنجار، ولكن بعيداً جداً من المكان الذي عبرنا في السفرة السابقة عندما رحلنا الى البصرة. وقتلنا في طريقنا حيواناً من نوع الغدير Blereau الذي يكثر في الصحاري.

في الليلة التالية تهنا في سيرنا واضطررنا على التوقف منتظرين انبلاج الصباح لنرى اين طريقنا الصحيح. وكان التعب قد انهكنا والعطش اهلكنا عندما وصلنا اخيراً الى قرية صغيرة، فاستقبلنا شيخها بروح انسانية عالية وقدم لنا الطعام والشراب. وهنا تركنا رئيس حراسنا فقام رجال هذه القرية بايصالنا الى نصيبين.

وشعر ساعي البريد الذي بمعيتنا انه نجا من موت محتم فاسرع لتقديم قربان شكر لله، اي ضحية نجاة، فذبح نعجة بحضور احد رجال الدين الذي قرأ آيات من القرآن [الكريم] ونحن بدورنا كمؤمنين متدينين رفعنا صلاة الى القديس يعقوب الذي هو شفيع[1] الحجاج، ويشاهد هنا ضريحة في معبد قرب الجسر يعلوه صندوق من الرخام السماقي الجميل قريب الشبه بضريح القديس برتلماوس الفلورنسي.

---

[1] مار يعقوب اسقف نصيبين من اشهر رجال الكنيسة الكلدانية ، توفى سنة 338

الفصل السابع

الرحيل من نصيبين والوصول الى ديار بكر

بارحنا نصيبين في الصباح الباكر من يوم 22 تشرين الثاني بحماية سبعة رجال وخيل من خيول البريد لكنها كانت رديئة. وبعد مسيرة مسافة نصف فرسخ من المدينة راينا قنطرة كبيرة نصف متهدمة، كان اليهود ياتون اليها للزيارة.

كانت خيولنا بحالة يرثى لها حقاً، ولكي نكمل طريقنا اضطرنا لتبديلهم في اول موقف ويضطر اصحاب الخيل الذهاب لاسترجاعهم. اما نحن فقد اردنا ان نتصرف بعدالة فدفعنا اجرة عن الخيول فنلنا من اصحابها الفقراء الشكر والبركات فهم لم يتعودا على نيل مبلغ عن خيولهم بل الاهانات لابل الضرب احياناً.

وبعد ان مررنا ببعض القرى وصلنا الى ماردين فوجدنا هناك عدداً من سعاة البريد وصندوق رواتب العسكر المرسل من اسطنبول الى بغداد، لكنهم لم يتجاسروا ان يكملوا طريقهم، فعند وصولنا سألونا عن الطريق فاطمانوا قليلاً وقرروا استئناف سيرهم.

من عادة سعاة البريد ان لا يخرجوا من بيوت البريد خوفاً من ان تنالهم الاهانات، وكنت اعمل مثلهم عادة. وكنت احمل رسائل الى الاب انياس المرسل في ماردين، فكلفت من يذهب اليه ويدعوه فجاء في الحال، واذ كنت لابسا الزي التركي وتحدثت معه بهذه اللغة التي يتقنها فلم يتعرف علي وسالني من اكون. فاجبته بتعبير تركي فاستغرب وامتقع وجهه وظن باني احد زملائه القدماء الذي كان اسمه جوستان وكان قد طرده في زمان مضى، والحقيقة ان جوستان كان قد مات لكن الاب المسكين لم يكن يعرف وظن انه رجع لينتقم – بواسطتي – من الرجل الذي الحق الضرر به... ولم اتركه يضرب اخماس باسداس بل كشفت له عن هويتي... ففرح.

كان الاب المذكور قد جمع عدداً من المواليات الفرثية، واكد لي انه في مكان يبعد عن ماردين مسيرة يومين توجد اثار قديمة جميلة، وبالقرب من تلك الاثار توجد قرية يتكلم سكانها الى اليوم مهجة يونانية يعتقد انهم من بقايا المقدونيين القدماء.

واخبرني الاب ايناس ان بطريرك السريان المنشقين [يريد :الارثوذكس] الشيخ قد توفاه الله[1]، وانه – اي الاب المذكور– يريد في هذه فرصة فراغ الكرسي ان يحصل على بعض الاهتداءات الى الكنيسة الرومانية، خاصة ان البطريرك الجديد الذي ينتظرون قدومه من حلب كان كاثوليكي ولابد انه لن يتأخر عند حصولة على هذا الكرم، ان يزرع فيه الزرع الجيد، فقد كاد الزؤان ان يخنق الزرع الجيد[2].

بارحنا ماردين في اليوم الثالث والعشرين (من تشرين الثاني 1781) فوصلنا الى قرية كردية بائسة كان بقربها كنيسة صغيرة، وكانت زوجة احد الشيوخ قد توفيت فدفنت هناك ولسيرتها الفاضلة صار قبرها يزار. كما ان ساعي البريد اراد ان يعبر عن تدينه فذبح خروفين وقدمهما لامرأة مسنة كانت تخدم هناك. وكان هذا الرجل متزوجاً، وكان مسلماً ورعاً، ولم يلد له نسل. فصلت علية تلك السيدة العجوز واعطته اربع تينات كانت قد وضعتها على قبر تلك المرأة الصالحة، واوصتة ان يضع كل تينة في كاس ماء لمدة اربع جمع متتالية وقبل نهاية السنة ستلد زوجتة وسيكون المولود ذكراً! فشكرها « الططر» على هذه الوصفة ونفحها بهبة جيدة.

واكملنا الطريق الى دياربكر فدخلناها من على الجسر القائم على دجلة.

هناك – في دياربكر – علمنا ان الرشوان Ruscivan كانوا يعوثون في الارض في طريق حلب وقد سطوا على واحدة من اغنى القوافل التي انطلقت من حلب. بينما كانت الطرق الاخرى امينة خاصة تلك التي تؤدي الى اورفا.

---

[1]– البطريرك اغناطيوس جرجس الرابع (1768–1781) واما البطريرك الجديد فهو مار اغناطيوس متي ثعلب (1782–1819).

[2]– مثل الكرم (متى20:1) ومثل الزرع الجيد والزؤان (متى 22:17).

نزلنا في بيت الآباء الكبوشيين لان بيت البريد لم يكن مريحاً. كان باشا ديار بكر يعد حملة للسير لتأديب الرشوان، وكان علية ان يضم محاربيه الى جانب عساكر بواشية وان وارضروم. وفي مثل هذه الحملات كانت تفرض عادة ضرائب خارقة العادة على الشعوب. وكانت طريقتهم انهم يبدأون اولاً بالاعدادات المهمة تلحقها التهديدات الكبيرة للشعوب فان خافوا ودفعوا المطلوب فان الحاميات لاتخرج من مواقعها؛ اما اذا رفضوا فعندئذ يبدأون بالحملة وعندئذ يسرعون لتأدية الضريبة قبل ان ينالهم الضرب والاهانات؛ وان غلب الباشوات فيعوضون من الضرائب بالسلب. هكذا يدور العالم!

يتصرف الحكام هنا كسائر الحكام الاخرين، وبكل الطرق المهينة ليجمعوا اكبر قدر من المال من الشعب، ويحاول الشعب ان يؤدي اقل مقدار ممكن من المال. يحاول الاقوياء ان يظلموا الضعفاء، ويرفض الضعفاء ان يظلموا. الناس في كل مكان ظلام، والقوانين بطبيعتها عادلة، لكن هنا لا توجد قوانين البتة، وان وجدت في بعض البلدان فان هذا الدواء يتحول كثيراً ما الى سم اذ هو بيد اطباء غير متنورين وبلا انسانية ويفتقرون الى الخلق الكريم

الفصل الثامن

السفر من دياربكر والوصول الى اورفا والبير وحلب

لم تكن الطرق أمينة، وكان من باب الفطنة ان ننتظر القافلة المتوقع ذهابها الى سيورك severek[1]، لكنها على ما يظهر ستتأخر مدة طويلة، بينما كنا نحن مستعجلين؛ ولذلك اخذنا خيلاً من بيت البريد وبدأنا السفر يوم 29 تشرين الثاني عند منتصف الليل فسرنا طول الليل والنهار كله، وكنا نسير في وسط ارض صحراوية وهي مواقع براكين خامدة لان الارض كلها كانت مغطاة ببقايا الحمم. وقطعنا جبل بسيرك Bessereck الذي كان على ما يبان من اهم البراكين قديماً. ثم توقفنا قليلاً قرب جدول صغير يسيل من الجبل فرقدنا قليلاً كل على سجادته. وكان من عادة ساعي البريد الذي معنا ان يسير بجزمته فوق سجادتنا، فنبهته الى ذلك فاني اذا ذهبت عنده اترك جزمتي تحت الدرج عملاً بالعادة الجارية فذكرته بذلك وطلبت منه ان لايوسخ سجادنا التي هي منامنا،فاستاء من ملاحظاتنا واسمعنا قارس الكلام وبعض الشتائم...

سيورك

في الثلاثين منه عدنا الى الطريق في الساعة الثانية صباحاً ومررنا بجبال كثيرة كانت في زمن مضى بركانية لكنها الآن خامدة، وهذه السلسلة تمتد الى جبال طوروس وتتصل ايضاً بجبال ماسيوس Masius. وكان الطريق مزعجاً وصعب على الخيل السير فيه، فاضطررنا خوفاً من ان تتكسر رقابنا ان نقطع بقية الطريق التي تؤدي الى سيورك سيراً على الاقدام، فوصلنا غايتنا في منتصف النهار

---

[1] – بلدة بين دياربكر واورفا وسيتكلم السائح عنها في هذا الفصل .

تقع سيورك في آخر موقع منحصر، وفي وسطها اكمة يقوم عليه حصن صغيرة. بيوتها مشيدة. بحجارة من بقايا الحمم البركانية والطين، وتنتشر حواليها الكروم، ويسكنها مسلمون وارمن، ويرأسها احد الاغوات... يسوق الاكراد والتركمان قطعانهم في في الصيف لترعى هنا لان مراعيها زاهرة حقاً.

اورفا = الرها

عندما اقتربنا من اورفا رأينا حقولاً مزروعة، ولكننا لم نجد اشجاراً، ورأينا هنا وهناك قرى متناثرة في السهل. وعند اقترابنا من المدينة رأينا كروماً كثيرة ناجحة جداً، ويظهر ان الكروم تنجح في الاراضي البركانية كما هي عندنا في صقلية.

نزلنا في خان واسع يقع خارج البلدة، واورفا هي مدينة اديسا القديمة عاصمة اورهاي اي اوسروينا Dsroene وتقع في القسم الغربي من بين النهرين. وكان الامبراطور كاراكلا[1] قد اقام حامية رومانية فيها يطلق الاتراك عليها اسم رهاواليسي Raha Valisi وهذا نطق فاسد للاسم القديم وهو كالليروهي Callirohe الذي اطلقه عليها الاغريق ولقد اعاد بنائها الامبراطور بوستينوس فدعيت باسمه يوستينوبوليس اي مدينة يوستينوس. اما سترابو فدعاها هيرابوليس Hierapolis.

انها من اول الولايات التي يرأسها باشا برتبة ثلاثة اطواغ. وللمدينة سور حسن الارتفاع مشيد باحجار صلصالية مربعة الشكل وهي واقعة على حافة تلة منحدرة ومن قمتها يستمتع الزائر بمنظر جميل فسيح. تكثر فيها البساتين والكروم.... يقوم في وسط المدينة جامع بدون سقف لكن المسلمين يؤدون فيه صلواتهم ويقال انه كان كنيسة على اسم مار يعقوب في زمن امراء الرها.

---

[1] ـ كاراكالا : امبراطور روماني (211 ـ 217) كان قاسياً وصلفاً قتل في الرها .

هناك خرائب فوق قمة الجبل يقولون عنها انها كانت قـصر الملـك ابجـر [1] مسجد له مئذنتان وايجر هذا هو الملك الذي ارسل يطلب تصويراً لـسيدنا المـسيح مظهراً استعداده لتقديم العون له عند اليهود وتروي الحوليات الارمنية بـان هـذا الامير كان ارمنياً وانه قَبِلَ العماد من يد أحد رسل المسيح بعثه اليه بعد قيامته[2]

بركة ابراهيم

يوجد قرب المدينة بركة ماء جميلة يطلق عليها اسم «بركة ابراهيم» وتقـوم اشجار عالية في جوارها ومقسورات عديدة في ارجاء الفناء وكذلك مسجد يتكـون ماء الحوض الصافي جداً والنقي للغاية من نبعين يتدفقان من تحت الارض. وتتمتع هذه الاماكن بكرامة خصوصية عند المسلمين وهي مقامة على اسم ابينـا ابـراهيم لانه على ما يروون انه سجد في هذا المكان قبل ان يقدم ابنه ذبيحة فأنبجس النبعان من تحت ركبتيه.

هذا الحوض مليئ بالاسماك، ولا يتجاسر احد على صيدها فان اقدم احد على فعل ذلك فسينال العقاب من عدل الله وعدل البشر من الطبيعي ان نفترض بان هذا الماء شفى ابجر من برصه. ويظهر لي ان هذا النبع هو المذكور عنـد اليونـانيين باسم نبع كاليروه Callirohe[3] . ويشيرون للزوار الى قبر واقع على مرتفع قريب

---

[1] ـ انه ـ حسب التقليد المحلي ـ ابجر الخامس اوكاما اي الاسود ، اصيب بالبرص فكتب الى السيد المسيح يدعوه للمجيئ الى مملكته لمنحه الشفاء والتخلص في الوقت نفسه مـن اضـطهاد اليهود فاجابه يسوع شاكراً ووعده انه سيرسل اليه احد تلاميذه .

[2] ـ اوسابيوس القيصري : تاريخ الكنيسة : الكتاب الاول الفصل 13 / 1 ـ 20 ترجمة القـس مرقس داود القاهرة 1960 ص 57 ـ 62 ، مختصر الاخبار البيعية تحقيق الاب بطرس حـداد بغداد 2000 ، ص 28 ، 97 ، 101

[3] ـ تكلم عدد كبير من السياح عن هذا الحوض او النبع مثل سبستياني سنة 1658 انظر رحلته المعربة ص 122 وثافرنييه ص 46 ن وقد ورد ذكرها في نهر الذهب في تاريخ حلب للغـزي الجزء الاول ص 542 .

يقولون عنه انه قبر سيدنا ابراهيم. وفي المدينة كنيسة مبنية على اسم القديس اليكس Alexis وقبور عدد من الشهداء[1]

يدر الكمرك في هذا المكان مالاً كثيراً لان عدداً كبيراً من القوافل تمر من هنا ويقدر دخله بنحوا اربعين كيساً في السنة. اما الباشا فانه يجني مبالغ طائلة اكان من العرب ام من الاكراد.

كان في الرها مبعث الاباء الكبوشيين يهتمون بهذه الرسالة وفي احدى الثورات الداخلية انتهز المسيحيون المنشقون الفرصة فحرضوا الانكشاريين عليهم للتخلص منهم فابادوهم اذ ذبحوهم عن اخرهم.

لم احصل على اية قطعة مسكوكه هنا رغم ان الناس قالوا بانهم عثروا على الكثير منها لكنهم اذابوها ومعظم المداليات التي وجدوها هنا تعود الى انطيوخوس الرابع وبعض الاباطرة الرومان والملوك الاباجرة كما ان معظم المداليات كانت سيئة الصنع ورسومها غير متقنة.

حصلنا على الخيل بصعوبة بالغة لانه لاتوجد هنا محطة لسعاة البريد فاستاجرناها من الناس العاديين وفي الثاني من كانون الاول [1781] خرجنا من اورفا سالكين طريقاً جبلية... وفي الرابع منه وصلنا الى بير الواقعة على الفرات... وبعد صعوبات كثيرة اخذنا حارساً كردياً واكملنا الطريق الى حلب التي وصلناها في مطلع النهار لكن ابوابها كانت لا تزال مغلقة فانتظرنا في مقهى وما ان فتحت الابواب حتى دخلنا وذهبنا فنزلنا عند القنصل الانكليزي.

---

[1] ــ من اولياء الله عاش متوحداً في نهاية القرن الرابع ومات نحو سنة 412 ، يحتفل بذكراه سنوياً في 17 تموز .

جدول السفر من بغداد الى حلب

المنطقة	ساعات السير
من بغداد الى كفري	37
من كفري الى كركوك	24
من كركوك الى الموصل	30
من الموصل الى نصيبين	45
من ماردين الى دياربكر	20
من دياربكر الى سيورك	20
من سيورك الى اورفا	18
من اورفا الى البير	50
من البير الى حلب	24
المجموع	280

- عندما تكون الطرق امنة فان السفر من بغداد الى حلب يستغرق 10 - 12 يوما
- المسافة بين حلب والقسطنطينية 250 فرسخاً
- هذه المسافة يقطعها ساعي البريد بعشرة ايام.

الفصل التاسع

المكوث في حلب

حلب هي المدينة الرئيسية او العاصمة لاقاليم عديدة، ويمكن اعتبارها اجمل مدينة في الدولة العثمانية، فهي كبيرة وحسنة البناء وكثيرة السكان، تعد حاراتها باربع وسبعين حارة، وفيها عدد كبير من المساجد والحمامات العامة.

بيوتها كلها مشيدة بالحجر البساتين والاسواق والخانات واسعة، الطرق معبدة جيداً، وهي نظيفة وتفوق نظافتها كل المدن التركية الاخرى يحيط بها سور له عدة ابواب.

اما سكانها فمنهم خليط من المسلمين والموارنة والارمن والروم واليهود.

لها قلعة قديمة وكبيرة، جديرة بالتفات المسافرين، وتقوم على مرتفع اصطناعي الذي توصف به مراراً، فهذه الامكان الاصطناعية ليست قليلة في بلاد اشور...

المسيحيون من الطقس اللاتيني عندهم رهبان كرمليون، وأباء الاراضي المقدسة [اي الاباء الفرنسيسكان] والكبوشيون والدومنيكان، اما اليسوعيون فلم يعد لهم وجود هنا. توجد خارج المدينة محلة واسعة تسمى اليهودية لكن سكانها من الموارنة.

التقينا في حلب بمطران بابل أي بغداد، وكان قد بارح فرنا متوجها لتفقد ابرشيته، واذ علم ان ابرشيات تلك الارجاء لاتحتوي الا على عدد قليل من المرسلين فاكتفى بارسال ابن اخيه بصفة وكيل[1]، وكان معه طبيب ورسام رافقاه في المجيء الى الشرق فعادا الى اوربا.

---

[1] ــ وهو الاب جوزيف بوشان الذي شيد في بغداد مرصداً . انظر : لغة العرب 6 (1928) ص561 ــ 563

الاوربيون الذين في حلب يعيشون بألفة فيما بينهم في زمن استتباب السلام بين دولهم وفي تلك الحالة كانون يمثلون مسرحيات ويقدمون قطعاً موسيقية على مسرح صغير، ويحتمل الجميع المصاريف الضرورية.

الفصل العاشر

السفر من حلب الى اللاذقية

كنت أريد أن اعود الى القسطنطينية وعلمت ان سفنية روسية سترحل من اللاذقية الى القسطنطينية. ولذلك ففي العاشر من كانون الثاني [1782] تركت حلب في الساعة الثانية بعد الظهر... لكن السفينة الروسية غيرت خطها ولم تعد تسير الى اسطنبول، فبحثنا عن اخرى فوجدنا واحدة تبحر الى فبرص، فقلنا لابأس اذا من هناك نستقل سفينة اخرى تبحر الى اسطنبول.

الفصل الحادي عشر

السفر من اللاذقية والوصول الى قبرص

هنا ايضاً لم استطع الحصول على سفينة تقلني الى القسطنطينية، فصعدت على سفينة متوجهة الى الاسكندرية ومنها سوف ابحر الى اسطنبول.....

الفصل الاخير

السفر من الاسكندرية والوصول الى القسطنطينية

اخذنا قايفاً بندقياً، ولما كانت الصالة الكبيرة قد احتلها الاتراك، رضيت بزاوية في غرفة القبطان لقاء مائة وخمسين قرشاً. وللعلم : فان كل مرة يستأجر الاتراك سفينة تعود للافرنج فانهم يحجزون لانفسهم الغرفة الكبرى كاملة فيملئوها باغراضهم، ويفرشون ارضيتها بالسجاد الذي ينامون عليه....

اضيف الى يومياتي: باني وجدت عند السيد انزلي [في القسطنطينية] رسالة موجهة اليَّ من الاب فولجنس مرسلة من بغداد يعلمني فيها باخر الاخبار التي بلغته من بلاد فارس: فبعد حصار طويل فرضه علي مراد خان على غرفة صادق خان

بان يعيد اليه شيراز، دخل الى المدينة اخيراً وقام بسمل عيني صادق خان وقــضى على كل افراد عائلته

القوة هي الحق الوحيد في الشرق، وهي السياسة الوحيدة التي يدير بها طغاة الشرق شؤون العباد !....

انتهى نص الرحلة

بيان السفر من بغداد الى دياربكر

ثم الى حلب عن طريق اورفا

ت	المدن	عدد ساعات السير
1	من بغداد الى بنكجية	7
2	من بنكجية الى مشبك - خان	8
3	من مشبك خان الى عباس كوبري	7
4	من عباس كوبري الى قره تبة	8
5	من قره تبة الى كفري	7
6	من كفري الى طوز خرماتو	9
7	من طوز خرماتو الى طاووق	7
8	من طاووق الى كركوك	8
9	من كركوك الى التون كبري	9
10	من التون كوبري الى اربيل او عينكاوة	12
11	من عينكاوة الى كرمليس	5
12	من كرمليس الى الموصل	5
13	من الموصل الى نصيبين	45
14	من نصيبين الى ماردين	12
15	من ماردين الى دياربكر	20
16	من دياربكر الى سبورك	20
17	من سبورك الى اورفا	18
18	من اورفا الى البير	18
19	من البير الى حلب	24
	المجموع	249

المحطات من البصرة الى الحلة

بالقارب صعوداً في نهر الفرات

ت	
1	يدك ــ ماكيل [ماركيل]
2	خان ــ عبر
3	ستيبان
4	سيدان
5	نهر عمر
6	دير
7	يزدو
8	راس يزدو
9	اسبير
10	قبور ــ تاجر
11	سويب
12	القرنة (كمرك)
13	بيرهميت
14	نهر عزة
15	مدينة
16	نهر صالح
17	دار بني سعده
18	الساجي
19	بحران
20	جنبات
21	منصورية

22	الجيري
23	التلة
24	اسماعين بن الحاجي
25	ابوكلبين
26	ام الشيشاجية
27	الشرجية
28	الطابيه
29	فحلي
30	مناجي
31	كوت المعمر
32	الزنوجه
33	عرجة (كوك)
34	ابو طبر
35	بازول[1]
46	قبين
37	اكيل ــ سويرب
38	تاني ــ سنيرد
39	كويسة
40	صافي
41	الخضر
42	وهرو
43	الكرين
44	بوحناجل

[1] ــ من هنا والمواقف التالية ليست سوى ارض صحراء يمر بها العرب المعدان (ملاحظة في الاصل)

45	زيرجية
46	سماوة
47	مسعده
48	شابي [1]
49 ـ 50ـ 51ـ52ـ53 لم يسجلهم	
54	سبيجة [2]
55ـ56ـ57ـ58 لم يسجلهم	
59	لملوم
60ـ65 لم يسجلهم	
66	الديوانية
67	مزراجي [3]
68 ـ 69 ـ70ـ71 أهمل ذكرهم	
72	كسكشيا
73	حسكة
74ـ75	اعراب المنصور
76	جديس
77	هويشة
78	مسعده
79	زادة ودولاب
80	الحلة

[1] ـ من هنا الى سبيجة (رقم 54) لاتوجد قرى ولامحطات .

[2] ـ ليست سوى مجموعة من الخيام للعرب المعدان من هنا الى لملوم والى الديوانية (اي الــى الرقم 66) وهناك بعض مناطق مزروعة بالرز .

[3] ـ من هنا الى الرقم 78 صحراء قاحلة او بعض الغابات (ملاحظات بالاصل)

فهارس الكتاب

المراجع

اوليفييه:رحلة اوليفييه الى العراق، ترجمة د. يوسف سبي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ــ 1988.

بالبي:رحلة بالبي الى العراق، ترجمة الاب د. بطرس حداد، منشورات دار الشؤون الثقافية ــ بغداد ــ 2004.

تافرنييه:العراق في القرن السابع عشر، ترجمة بشيرفرنيس وكوركيس عواد، بغداد ــ 1941.

الحجية:عزيز جاسم، بغداديات، الجزء الثالث، بغداد 1973.

الحسني:عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ــ 1971.

الحموي:ياقوت، معجم البلدان (ط. ويستنفيلد).

الدملوجي: صديق اليزيدية. الموصل 1949.

سبستياني:رحلات سبسبستياني الى العراق، ترجمة الاب د. بطرس حداد ، بغداد 2004.

سركيس:يعقوب، مباحث عراقية، جــ 1 (بغداد 1948) جــ 2 (1955).

العامر:يقظان سعدون : نشاط شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة، دار الحكمة، 1990، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد 1980.

العزاوي:عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء السادس، بغداد 1954.

عواد:كوركيس، المعرب من كتب الرحلات الاجنبية الى العراق، مجلة الافلام (1964) العدد 1، ص 54 ــ 74.

لونكريك:ستيفن همسلي، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، ط 4، بغداد ــ 1968.

المعلوف:امين، معجم الحيوان، بيروت، ب. ت.

مفري:بطرس، ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، الجزء الثاني، الموصل 1913. مطبعة الاباء الدومنيكان.

فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

فهرس عمراني عام

فهرس الكتاب

فهارس الكتاب